جامعة القرويين

* *

كلية الشريعة - فاس

مجلة

كلية الشريعة

مجلة جامعية إسلامية علمية

العدد 2 السنة الأولى

ربيع الثاني 1397 - مارس 1977

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم

سورة الفاتحة

* * *

لا إله إلا هو عليه توكلت
وهو رب العرش العظيم

الآية 129 سورة التوبة

تهنئة المجلة

بعيد العرش المجيد وعيد المولد النبوي الشريف

مليكنـــا حينما ترضى سجايـــاه ... عناية الله تحميـــه ، وترعـــاه
جئنـــا نهنئـــه بالعيد ، طافحـــة ... بالبشر ايامه من طيب مغنـــاه
جئنا نبـــارك ما يمليه من شمم ... على الخلود ، تحدى من تحـــداه
والعيد معنى له فى القلب فرحته ... تهديك نشوتها من روح معنـــاه
(وللمسيرة) فى قلب الدنى أرج ... يضوع فى الكون من أصداء مسعاه
وللمليـــك بطـــولات مـــوقفـــه ... من عهد والده فى تيـــه منفـــاه
قد شد أزرا به فى قلب معركـــة ... ونال أنسا ، فما أغلى مزايـــاه
وسار من بعده سير امرىء حدب ... بالشعب يحرسه فى سعيه اللـــه

* * *

ما زال (مليون هكتار) يداعبه ... وقد دنا منه فيه مـــا توخـــاه
والماء ، بين سدود ، لم يزل رصدا ... لمغـــرب جـــد أرواه وأغنـــــاه
ووحدة الترب عاقت عن تفككه ... فعـــاد صنو أخ فى الترب يلقاه
فالله يحفظـــه ذخـــرا لامتـــه ... وللمبـــرات تستهـــوى رعايـــاه
وينبت الشبل فى ظل ، وفى دعة ... ولى عهد له ، يحميـــه مـــولاه
ويكلا الاسرة الميمون موكبهـــا ... بتـــاج مغربنـــا المخضر مرعاه

المجلـــة

افتتاحية العدد

أيها القارىء الكريم :

اذا كان لكل مسافر زاده فى طريقه الطويل . فزاد مجلتنا « كلية الشريعة » هو ثقتك بها وثقتها بك .

فقد ولدت لتخدم الفكر الاصيل ، والثقافة الاسلامية الخالدة ، وحسبها شرفا أن تكون فى خدمة الاسلام خاتم الاديان ، ودين حرية الفرد وكرامته ، وحرية الجماعة وكرامتها

ومنذ وطئت أقدام الفاتحين المسلمين أرض هذه البلاد . وحملوا اليه الدعوة الاسلامية ، والمغرب مسلم متدين ، مخلص لدينه ، متمسك بعقيدته وقوميته وتقاليده ومقدساته : فلا غرو أن تجد هذه المجلة صدى فى الاوساط الاسلامية عموما والمغربية خصوصا ، ولا غرو أن تظهر فى وقت تشتد فيه الحاجة الى مجلة اسلامية علمية جامعية ، تنشر ما يكتبه علماء الاسلام .. مدافعة عن أصالتنا الاسلامية ، وحارسة لنهضتنا الدينية فى الميدان الجامعى.

لقد صدر العدد «الاول» فكان ميلادا لتاريخ كليتنا الجديد المتجدد .. المحافظ على أصالته وعراقته ، والمتطلع الى احياء البحث العلمى بما ينشره أساتذة هذا التعليم من أبحاث فى الفقه والتفسير والحديث والقوانين الشرعية، وتراجم الشخصيات العلمية التى كان لها الفضل فى بقاء هذا التعليم الاصيل صامدا عالى الرأس يؤدى واجبه رغم العواصف والاحداث التى مرت به .

لقد تلقينا عدة رسائل من وزراء وعلماء وكتاب ومثقفين وطلاب ومعجبين بمجلتنا « كلية الشريعة » وقد شعرنا بالاعتزاز والفخر والقدرة على السير باطمئنان . كما تلقينا عدة أبحاث ومقالات بعد أن كان العدد جاهزا للطبع سوف ننشرها فيما بعد بحول الله .

ولهذا فنحن نشكر كل الذين زودونابطاقاتهم الفكرية وأبحاثهم الدقيقة العلمية الجامعية ورفعوا الستار عن شخصيات علمية واسعة الافق بعيدة الصيت فى الضبط والاتقان وكتبوا الينا مشجعين ، وموجهين ، ومؤيدين .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن جامعة القرويين رائدة الفكر الاسلامى الاصيل فى هذه البلاد . تساير مواكب التطور فى سائر الاعصار وتزهى بمواقفها التاريخية ومعطياتها الايجابية سائر مدن المغرب والامصار وذلك ــ بفضل ما تملكه من رصيد هائل ، وما لجلالة ملكنا من عناية كاملة فى بعث مجدها واحياء تراثها ويقظة علمائها المخلصين الابرار .

ومن يمن طالع هذه المجلة والتبؤ لها بنجاح متألق حاضر واشراق مطرد زاهر أن قد رأت النور ولما يمض على الحدث التاريخى العظيم حدث المسيرة الخضراء أكثر من عام .

المجلة

تحية إلى مجلة كلية الشريعة

وردت على مدير المجلة ، كلمة ملؤها الايمان الصادق ، والحب الخالص والوفاء الكامل ، والامل المشرق من ابن بار لجامعة القرويين الاستاذ العلامة مدير الديوان الملكي سيدى احمد بنسودة ننشرها فيما يلي :

سرنى جدا كواحد من الذين يدينون بالفضل، لجامعة القرويين ويحتفظون لها بكثير من الاجلال والعرفان بالجميل ، ان ارى ميلاد « مجلة كلية الشريعة » احدى فروع الدوحة المثمرة ، جامعة القرويين الخالدة .

باغتباط تصفحت المجلة ، وسرتنى موضوعاتها الشيقة المتنوعة ، التى دبجها يراع اساتذة من علماء جامعة القرويين ، واساتذة من غيرها من المع الاسماء العلمية بالمملكة المغربية ، ابقاها الله دوما دار علم وعرفان .

كنا نتطلع الى صنيع مثل هذا من زمان ، منذ ان من الله على بلادنا باسترجاع سيادتها ، ولكن ، وما تشاؤون الا ان يشاء الله ، ولكل اجل كتاب .

فمرحبا « ببنت » اقدم جامعة فى العالم ، غرس الاباء الامجاد الشم الميامين ، الذين ابقوا لنا — عليهم اعطر الرحمات — ما به يذكرون ، وما به نفخر ونعتز ، على انا منهم ، وعلى انهم الذين اسسوا وشيدوا ، ورفعوا لنا ذكرا بين الامم والشعوب .

لقد كانت القرويين مهد العلوم ، ومورد طلاب المعرفة ، عبر اجيال من تاريخ بلادنا .. واسدت الخير كل الخير ، للمغرب ولاقطار ارتبط به من عصور ، موغلة فى القديم ، كرع ابناؤه وابناؤها ، من منهل جامعته العريقة الماجدة .

ولئن تعرضت الى آفة التخلف ، لظروف ما كان لجامعتنا ولا لشقيقاتها فى العالم الاسلامى ، يد فيها ولا اختيار ... انها الهجمة التى أصابت الزيتونة الفيحاء بتونس ، والازهر الشريف بالكنانة .

وها هى اليوم جامعة القرويين ، تستيقظ عملاقة سامقة تطاول السماء ، ولها فى دعم ورعاية مولانا امير المؤمنين ، صاحب الجلالة الملك الحسن الثانى ايده الله ونصره ، ما يشد ازرها ، لتدرك ركب جامعات هنا وهناك ، وتنبىء العالم على انها ستعود الى ريعان شبابها ، وتطلع الدنيا — عن طريق جهود ابنائها الذين لهم عزم الشباب ، وجلد الكهول ، وحكمة الشيوخ — على انها بامكانها ان تساهم كبناتها من جامعات بلادنا ، فى بناء المغرب الحديث .

فيا صوت القرويين ، ارتفع معلنا كلمة الحق ، مع صوت الآذان المرتفع من مأذنتك ، تلك التى تحتفظ بتذكار خالد من بقايا الجدود ، هو سيف الفاتح الاكبر المولى ادريس .. وانطلق مع اصوات شقيقاتك فى دنيا الاسلام ، مبددا دياجير ظلمات المادية المتطفلة ، على حمى الروح ، فى عالمنا الاسلامى السمح .

مدير الديوان الملكى
احمد ابن سودة

نظام الاسلام في المال والاقتصاد

موضوع شارك بـه **الاستاذ الفاروق الرحالـي**
عميـد كليـة اللغـة العربية رئيـس المجـلس العلمي بمراكش في مؤتمر الفقه الاسلامي المنعقد بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض من 1 — 11 — 1396 — 10 — 11 — 1396 .

وبعد ، فمن الحقائق الثابتـة والعقائـد الراسخة البعيدة كل البعد عن الاغاليط والاضاليل ان الاسلام نظام روحي ومادي ، ومتكامل ومتكافل، وقام على مبادىء قيمة وحكيمة ، تعود اليها كـل القواعد والكليات ، وسائر التفاصيل والجزئيات ، والحياة الانسانية على اختلاف وجوهها وفروعها انما يوخذ روحها وجوهرها من هذه المبادىء الحية الناهضة التي ترتبط بها الحياة ارتباطا وثيقا ، فالاسلام الصحيح دين التوحيد والاتحاد ، ودين الدعوة والجهاد ، ودين العزة والقوة ، ودين المروءة والفتوة ، والمسلمون يدينون بهذا الدين الكريم ، يومنون بالله الواحد العظيم ، الذي جمع كل صفات المجد والكمال ، وتنزه من سمات النقص والمحال ، وابدع الكون بحكم قدرته ، وانار الوجود بنـور ذاته ، وارشد سبحانه الى منهج الحياة بوحيه واوصى المسلمين ان يعتصموا بحبله ، ويجتمعوا على كتابه وسنة رسوله ، وسبح كـل مـن في السموات والارض بحمده فتبارك اللـه احسـن الخالقين ، ولله العزة ولرسوله وللمومنين .

والحياة التي تقوم على المعرفة والعبـادة والعدالة والامانة والتكافل والتكامل هي الحيـاة الناهضة المستقيمة ، والحياة الطيبة السعيدة في الحال والمآل ، وهذا قول الله جل جلاله : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص » وقع التعبير عن العمل بالقتال لانه اهل الاعمال فان ذروة سنام الاسلام هي الجهاد فهو من باب ذكر الخاص وارادة العام ، وما اكثر هذه البلاغة في الكلام الفصيح الصحيح والحياة معركة دائمة حسية كانت او معنوية ، والشيطان عـدو الانسـان ، والانسان لا بد له ان يجاهد ويجتهد — ومن هذا النمط ايضا قوله تعالى : « واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هـؤلاء » .

المعنى والله اعلم : واذا قاموا الى عمل من الاعمال كالصلاة قاموا كسالى ، وذكرت الصلاة كمثال لانها اول مظهر للعمل التعبدي بعد الايمان

والتوحيد ، فالمقام مقام ذم الكسل فى الاعمال لا فى الصلاة وحدها ، وما دام العبد قائما فى مقام العبودية لله عز وجل متوخيا لامره ومستجيبا لحكمه ، فهو عبد الله ظاهرا وباطنا وان امتلات يده بالدنيا وان اختلفت وجهته فى العمل ، فتعاطى الفلاحة والتجارة والصناعة والسياسة والجندية والتربية والتعليم فى المدارس المختلفة والاجتماع والتعاون على البر والتقوى كل ذلك سبيل الله وكل ذلك عبودية لله عز وجل اذا استقام اصحابها ومارسوها بنية صالحة وقصد صحيح ·

وهناك الدنيا المذمومة والملعونة وهى القائمة على الجهل والظلم والفساد والاستبداد واللهو واللعب ، والنفاق والكذب ، والربا والغش والدس والدلس ، فليست الدنيا كلها مذمومة ولا كلها ممدوحة ، بل لكل مقام معلوم — كما ان الناس ليسوا كلهم عدولا وصادقين ولا كلهم فساقا ومنافقين بل منهم ومنهم فى كل زمان وفى كل مكان ، الا ان عناصر الشر اكثر من عناصر الخير فى كل وقت وفى كل جهة كما اخبر بذلك سبحانه وتعالى ·

ومما يتعجب منه قول بعض الناس ان كل المسلمين الذين راوا النبى صلى الله عليه وسلم كانوا عدولا صادقين ، بينما القرآن الكريم يصف بعضهم بالشقاق ويسجل على آخرين النفاق وهكذا فان الشريعة لا تقاوم الطبيعة وانما تقومها وتنظمها اذا حلت هداية الله قلب الانسان « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » ·

والمسلم الحق يستلهم من الله الفطرة السليمة التى تهديه فى طريق حياته كى يحكم الصلة بينه وبين خالقه حتى يؤدى رسالته فى هذا الوجود وفق وحى الله وطبق نظام الله · والمثل الاعلى للمسلم ليس فقط فى اشباع الشهوات المادية وتحقيق الرغبات الجسمية ، وانما هو فى السمو الى مرتبة المخلوق المتصل بروح الله ، والقائم على اسعاد عباد الله ، وذلك ما يجسم قوة الايمان بالله ، والرغبة فى ايصال النفع لعباد الله ·

واولى الناس بالله اقواهم بايمانه ، واحب الناس الى الله انفعهم لعباده ·

والاسلام فى الواقع ارقى تصور للحياة البشرية ، واسمى منهج للمجتمع الاسلامى واقوى رابطة بين الخلق والخالق ·

واما المثل الاعلى فى المذهب المادى والاقتصادى الغربى فهو تحقيق اكبر قسط من التمتع المادى والانتفاع الذاتى ولا حساب فيه لغير ذلك ،وبطبيعة الحال تكون الوسائل كلها مادية بحتة — وهذا النظام الذى يجد له مبررات تاريخية قد يتفق وقد يختلف مع وحى الضمير واصل الفطرة ، وهذا التصرف الذى استبدل المادة بالايمان — وهو المحور الذى تدور عليه حياة الناس فى هذا العصر — ومن الاسف ان يشايعه المسلمون ويسايروا حظه على ما به من مصايب ومصائب مع ان المفكرين فى البلدان الناهضة التى بلغت درجة قصوى فى التمتع بانواع الماديات يشعرون بافتقادهم لمعنى وجودهم الذاتى، ويتساءلون عن حكمة وجودهم وقد بلغوا فى الملذة ما بلغوا ·

ولما كان الاسلام نظاما شاملا ، وحضارة وافية ، وثقافة سامية فانه لا يمكن ان يهمل النظام المالى والاقتصادى الذى لا تتم حياة الدولة الاسلامية بدونه ، ولا تنهض اى نهوض دون اعتباره ولذلك فلا جرم ان يكون اول العناصر الاساسية التى يقوم عليها هو العقيدة اى الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بما جاء به من الانظمة والاحكام — والايمان بالتوحيد المطلق البعيد عن

كل شائبة من شوائب الشرك ، وعن كل شبهة من شبهات الالحاد ، — فان الاسلام لا يقبل الشرك بأى حال من الاحوال ، « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وان الله لا يقبل العمل المشترك ، كما انه لا يقبل على القلب المشترك ، وانما توحيد خالص لا شركة فيه وعبادة خالصة لهذا التوحيد المطلق «الا لله الدين الخالص» ولا ينبغى أن يكون الركوع والسجود لغير الله ابدا فان طغى جانب المادة على جانب الروح حتى أصبحت بوسائلها فى حكم المعبود يتطلع اليها الانسان لبلوغ السمو والكمال ، أو يضفى عليها صفة من صفات القداسة والطهارة فذلك هو الشرك المنافى للعقيدة ، وللمثل الاعلى فى الاسلام ، فالتوحيد الخالص والطاعة الخالصة لخالق هذا الكون ومبدعه باستقامة القلب وأمانة الضمير هو العنصر الاول الذى ينبنى عليه اقتصاد الاسلام ·

واما العنصر الثانى فهو عنصر التعبئة العامة للعمل — ومن المعروف أن الانسان يكون جسما وروحا ولكل منهما مقتضيات ومتطلبات لا بد من تحصيلهما واكتسابهما ومطالب الجسم ضرورية لا مفر منها وما خلق الانسان فى هذا الكون المتغير والعالم المتكدر الا ليعيش فى ظله ويتصل بطبعه ، ويثبت بالعمل حقيقة وجوده — ليدافع عن ايمانه وحقوقه ، ومع أن خالق الكون قو أودع فينا قوة مادية وقوة معنوية — فان تحقيق الشهوة والقوة المادية ليست الا وسيلة من وسائل بلوغ الهدف الاسمى ولا تكون غاية ولا مثلا أعلى وان كان العمل هو العنصر الثانى الذى يصعد عليه الاقتصاد العام — ومن الكلمات الحكيمة : اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لاخراك كأنك تموت غدا ·

واما العنصر الثالث فهو تطبيق النظام الاسلامى فى كل جانب من جوانب الحياة المختلفة تطبيقا سليما مع التزام الاعتدال والتوسط بين الافراط والتفريط والاسراف والتقتير لقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » اى بسلوككم واعمالكم وحسن تدبيركم وتصرفكم · والاقتصاد جزء من حياة المرء ذات الجوانب المتعددة والاسلام كما تعلمون يكفل بعضه بعضا ويكمل بعضه بعضا فهو حين يذكر ناحية اقتصادية مثلا يفترض وجود النواحى الاخرى التى تحكم علاقات الافراد كأعضاء فى مجتمع لا يفترق ولا ينشق ، اى يفرض النواحى القانونية والاجتماعية والسياسية وبدون هذا الافتراض يظهر الاقتصاد الاسلامى ناقصا ومتأخرا عن مستوى الاقتصاد الوافى ·

فمثلا ترى فى كتاب الله التنويع فى اساليب الترغيب فى النفقة فى سبيل الله — بينما حياة الاسلام لا تقوم على الصدقات والتبرعات وانما تقوم على الكدح والسعى لطلب الرزق — وتيسير العمل لكل قادر ، — وتوزيع العمل بين فئات المجتمع وهذا توجيه النبى صلى الله عليه وسلم : من استعف اعفه الله ومن استغنى أغناه الله ومن سأل وعنده اربعون درهما فقد الحف ، والالحاف مذموم ، والتعفف محمود كما قال الله سبحانه : « للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا » الا أن هناك حالات استثنائية تختلف عن المنهج المطلوب وعن القاعدة الاصلية وهذه الحالات هى الحياة التى تعالجها النفقة والصدقة فى سبيل الله — فعدما يدرس المسلم آيات الصدقة مثلا يجب ان يلتفت الى نصوص أخرى تحث على العمل والنشاط ، وتربؤ بالانسان ان يعيش على السؤال والعطاء ، كقوله

تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله — ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى » وكحديث : اليد العليا خير من اليد السفلى ، والاسلام يعلو ولا يعلى عليه، وحديث : لان ياخذ احدكم حبله فيحتطب خير له من ان يسأل الناس اعطوه او منعوه ·

ولقد كان فى سلف هذه الامة من يتنازل عن عطائه الرسمى ترفعا وتعففا واستغناء — وبذلك يتبين للمسلم البصير انه لا محل فى المجتمع الاسلامى لساقط الهمة ولا لضعيف النفس الذى يريد أن يكون بطالا وعالة على الناس ·

على ان نظام الاسلام لا يدع مجالا واسعا للفقر ولا للظلم اذا اخذناه على حقيقته ، والزمنا القادرين بالعمل ، ووجدنا لهم مناطق العمل ، وفتحنا لهم ابواب العمل ، وبعبارة اخرى اذا احكمت خطة الاسلام وفرضت حياته وتحكمت عدالته فان مجال الفقر والظلم ينقض ويضيق ·

وبكون الحياة المادية جزء من عقيدة لا تقبل التجزئة ولا الازدواجية ، ولا أن يعيش الفرد لمجرد شهواته وتحقيق نزواته ، يتميز الاقتصاد الاسلامى عن غيره — فهو اقتصاد يرمى أن يكون الانسان عزيزا قويا بعمله واجتهاده — وعبدا خالصا لله فى تحركاته وتصرفاته لا عبدا للمال والشهوات التى تفريه على الظلم والفساد والاستهتار بالقيم والاخلاق ·

وبما أن الانسان روح ومادة فلن تحصل السعادة الا بايجاد التوازن بين هذين العنصرين والمادة وعاء الروح ، والروح من أمر الله تبارك وتعالى — وهى سبيل الشعور بالمعنويات ، والتسامى الى الكمالات ، الذى يحفظ للانسان قيمته وميزته — وبذلك فلا تتحقق السعادة المطلوبة الا باشباع الرغبات المادية والرغبات المعنوية جميعا ، ومن هنا نرى أن العناية بالمادة وحدها تهدد العالم بالخراب والفناء فلا سعادة ولا راحة ، وانما هى الفتن المتزاحمة ، والحروب المتطالة ، التى لا تهدأ ولا تنقطع — والاقتصاد الراسمالى يسير وينمو من وراء هذه الفتن وهذه الحروب — وواقع الحياة وحقيقة الامر يفرضان على المسؤولين من اولى الامر — ان لا يغفلوا اعتبار القيم الروحية فى اعتبار القيم المادية حين يدرسونها ويخططونها، اذ كل تمتع فى هذه الحياة لا يكون شيئا الا اذا انعكس على مشاعر الانسان ومعانيه واحاسيسه، وهذه كلها معنويات ، وليس فيها شىء من صفات الماديات ·

ومن هنا ايضا نرى انه لا غنى فى الاسلام عن القوة المادية والقوة المعنوية فى كل معركة من معارك الحياة الدنيا — كانت المعركة اقتصادية او سياسية او اجتماعية او اخلاقية ، او دفاعية تحررية — وهذا كتاب الله ينطق علينا « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » « واستعينوا بالصبر والصلاة » فالقوة المأمور بها مادية معنوية ، وتلك هى القوة المستوية التى تجعل الانسان فى مأمن من دوافع الظلم ورواسب الاثم ·

وتطبيق نظام الاسلام غير مبعض ولا مجزء — وغير مزور ولا مشوه — هو الاساس الثالث لمفهوم الاقتصاد فى الاسلام ·

ومما لا جدال ان الاستمتاع الجامع بين الروحيات والماديات — يوجب أن يكون التمتع لصالح البشرية ولخير الانسانية بحيث لا يعود ذلك بالضرر على اى جهة من الجهات وكل نظام يستضر به آخرون — فانه يتنافى مع الفلسفة الاسلامية

والعقيدة السامية اذ الفرد جزء لا يتجزأ من المجتمع، وهذه الصلة تجعل له حقوقا ، وتفرض عليه واجبات ، ولذلك فلا بدع ان نرى ضرورة حصر المعاملات المادية ، والتصرفات الاقتصادية فى نطاق مصلحة المجتمع العام ، وفى الحديث الثابت : لا ضرر ولا ضرار ، أى لا تضروا انفسكم ولا تضروا غيركم ، ونحوه قوله تعالى : « لا تظلمون ولا تظلمون » .

وانما اذا قارنا باختصار بين الفلسفة الاسلامية التى يجب علينا معشر المسلمين ان نسير على ضوئها ، والفلسفة الغربية التى يسير عليها اقتصاد هذا العصر المفتون ، يظهر لنا جليا فيما يلى الهدف الاسمى فى مذهب المحمديين هو السمو الزوجى والصعود المعنوى ، عن طريق الاتصال بخالق البرية ، والاندفاع فى خدمة مصالح الانسانية . والمادة ما هى الا وسيلة لهذا السمو الانسانى الطاهر ، والهدف الاسمى فى مذهب الماديين ، وهو اسعاد البشرية عن طريق الاشباع المادى الذى لا تخلو حياته من تعسف وانحراف وتظالم .

والفرد فى الاسلام نواة المجتمع يعيش وفق التعاليم الاسلامية محتفظا بحريته فى الفكر والعمل، والفرد فى المذهب المادى جزء من مجتمع يفرض عليه نظامه المادى وتتقيد حريته تبعا لذلك ، والمادة فى الاسلام تخدم الفرد والمجتمع وتنقاد لحكمهمالكنها فى المذهب الآخر هى التى تسود وهى التى تسوق الفرد والمجتمع على السواء .

وكيفما كان المذهب فأساس العبادات والمعاملات هو العلم والمعرفة والخبرة والتجربة ، فان الله لا يعبد بالجهل ، وان الحياة لا تنهض بالجهل ، فعلى المسلمين — ان يطلبوا فى كل زمان وفى كل مكان وبكل حيلة وبكل وسيلة العلوم الدينية والتقنية والتكنولوجية ، — وان يعلموا ان الاسلام لا يعترف بحياة الجهل والتأخر — وانه يجعل التعليم ايجابيا واجباريا ، وكفى قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم . وهذا ما يفسره واقع هذا العصر فان الامم والشعوب منها ما يدعى بالشعوب الناهضة وهم الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا — ومنها ما يسمى بالشعوب النامية وهم الجاهلون بحياة الدنيا السائرون فى طريق النمو ولا يستوى عالم وجاهل أبدا ، فالشعب العالم غير الشعب الجاهل ، والاسلام فى مستواه الاعلى ولكن المسلمين ليسوا فى مستوى الاسلام ، فاللهم بصرنا بحقيقة امرنا واهدنا الى طريقة رشدنا .

والرفاهية المطلوبة فى الاسلام هى ان يستمتع المجتمع بالمال الحلال على الوجه الحلال — وأن تكون المادة مسخرة للنمو والسمو ومنسجمة مع الهدف الاعلى للاسلام . روى الامام البخارى رحمه الله فى صحيحه عن ابى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يأتى على الناس زمان لا يبالى المرء من اين اصاب المال امن حلال أم من حرام ، وروى النسائى رحمه الله فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يأتى على الناس زمان ياكلون الربا ومن لم ياكله اصابه من غباره ، ولعل الزمان الذى نعيش احداثه ونسير فى تياراته يفسر هذين الحديثين بخير تفسير ويشهد بصدق ما اخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم — وذلك ان الانسان اصبح فى هذا العصر الطاغى لا يهتم بالبحث عن وجه اصابة المال ، وانما ينصب اهتمامه على التخبط من اجل المال ، فبأى وجه وصل اليه اخذه

وان كان من اربى الربا واخبث الخبيث والذين لا ياكلون الربا يعيشون بجانبه ويصيبهم من غباره كما قال صلى الله عليه وسلم ، وانه لقول صادق وواقع · اخرج الامام مسلم رحمه الله فى مسنده الصحيح عن ابى ذر جندب ابن جنادة الغفارى رضى الله عنه ، أن ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالاجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ، ان لكم بكل تكبيرة صدقة ، وكل تسبيحة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وامر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع احدكم صدقة · قالوا يا رسول الله : أيأتى احدنا شهوته ويكون له فيها اجر ، قال أرايتم لو وضعها فى حرام اكان عليه وزر ، فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له اجر · وهذا نص الحديث المكشوف الذى رواه ابو ذر الغفارى رضى الله عنه صاحب المذهب المشهور ·

والغرض من جليه أن المال من شانه ان سبب منافسة الفقراء للاغنياء وان كانت منافستهم هنا غبطة ورغبة فى الخير ظانين ان الصدقة لا توجد الا بالمال فأبان لهم صلى الله عليه وسلم ان كل عنصر من عناصر الخير صدقة وفاجأهم صلى الله عليه وسلم بشىء آخر وهو أن مباشرة الرجل لامراته صدقة وذلك ما جعلهم يستنبئون ويستطلعون فاكد لهم صلى الله عليه وسلم ذلك بالحمل على ما يعهدون ·

وقد علم الله سبحانه ما سيكون من المشادة والمشاقة بين الجانبين — فحذرهما سبحانه وخاطبهما بخطابين ، احدهما للاغنياء « ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير » والآخر للفقراء « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » ولكن لما أعرض الاغنياء عن الفقراء ولما تعرض الضعفاء للاغنياء ، ساءت العلاقة بينهما وتكونت عقدة نفسية وازمات خلقية وتطور ذلك تطورا طبيعيا وتاريخيا حتى نشأت مذاهب اشتراكية ، ومذاهب راسمالية فآل الامر الى ما نرى من حروب باردة تارة وحروب ساخنة اخرى، اى آل الامر الى مناصبة العداء ومنازلة اللقاء ، وذلك كله من حكم الله ، والله يحكم ما يريد ·

وبعد هذا القدر اليسير من التقديم والتمهيد ننتهى الى القول بأن الله جل وعلا خلق الانسان كما شاء واختار « وربك يخلق ما يشاء ويختار » فركبه فى احسن صورة ناطقة وسلحه بقوة روحية ومادية وهياه ليحمل سياسة الخلافة فى الارض فيقوم فيها بأمر الله ، ويحكم فيها بحكم الله ، وخلق المال بجانبه وجعله قواما لوجوده وسببا فى انجاح مساعيه ، وادراك مراميه والمال باعتبار المفهوم كل ما يملك من الاشياء او كل ما يجرى فيه البذل والمنع ، او كل ما يميل اليه الطبع — وكانت له قيمة فى عرف الناس وفى عرف الشرع — والمال باعتبار الموضوع دعامة الحياة ، وسياسة القوة وامارة العزة — والانسان فى حقيقته وواقع امره طبيعة متبصرة وطاقة متفجرة اختصه الله بسلطان العقل ، وميزان العدل ، الا انه قد يأخذ معدل الباطل فينحرف شاردا عن جادة الطريق ، ويندفع مغرورا وراء الاغراض لما جبل عليه من حب الشهوات الفانية والمستلذات الباطلة ، وقديما قالوا : الاغراض امراض ، والشهوات نزوات .

فالانسان معدن الخير والشر ، واداة الاصلاح والافساد ، فهو الذى يصرف قوة المال ويشرف على سير الاعمال ، ويضع برامج الحرام والحلال ·

ومن هناك كان مسؤولا عن كل ما يروج

فى هذا العالم من ظلم وفساد وحرب وعناد واثرة واستبداد .

واذا ما امعنا النظر فى هذا الوضع ادركنا ان القوة ليست فى وجود المال وانما هى فى وجود الانسان اى فى حكمته وسياسته ، وفى سلوكه واستقامته ، وفى تجاربه واستفادته من الواقع والاحداث ، واستنتاجاته من عبر الاحوال وعبر الاجيال .

والى ذلك فقد اقتضت حكمة الله ان لا تجرى الحظوظ على مقاييس العقول وان لا تتساوى الافراد فى رغادة العيش وغضارة الرزق لما يعلمه سبحانه من الحكمة والمصلحة كاتخاذ بعضنا بعضا مسخرا فى حركات الاعمال من حرث وحفر وحمل الاثقال وذلك قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » اى مسخرا — وليبتلى الله كلا ممن ضاق عيشه وممن فاض رزقه ، كما قال : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » اى امتحانا لكم — وقل من ينجح فى هذا الامتحان المزدوج اى الصبر عند الشر والشكر عند الخير — فالتفاضل بين العباد ماديا وادبيا شىء طبيعى وواقعى ولا سبيل الى دفع الطبيعة ومقاومتها — ولا الى جحد الواقع ومناكرته ، لان ذلك حكمة الله فى ارضه ، وقسمة الله بين خلقه « والله يعلم وانتم لا تعلمون » وليس الغنى والفقر من حيلة الفتى ، ولكن حظوظ قسمت وجدود .

ولذلك كان من الظلم تسوية الاستعدادات والمواهب القوية بالاستعدادات والمواهب الضعيفة ، الا انه يجب كحق موثوق به ان تتاح فرص الحياة واسبابها لجميع الناس فلا يقف امام فرد من الافراد ذو حسب ولا نسب ولا جنس ولا اصل « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » اى ولتتعاونوا — وانما يكون التعاون بعد التعارف .

وقد منع الله سبحانه الانسان من التصرف فى المال الا باسباب نصبها ، واحكام وضعها ترغيبا فى الامن والعدل والنظام — وتنبيها على وجوب تعاطى الاسباب ، وضرورة السعى والاكتساب فلا يسوغ اخذ المال الا بحقه ، ولا صرفه الا لمستحقه فى حال الاختيار وفى حال الاضطرار ، ولا يكتسب او يوخذ بوجه غير مشروع كالمراباة والمقامرة وكالاسلال والاغلال وكالاعتداء والارتشاء ولا تحل المطاولة فى الحقوق والمعاملات ، ولا تجوز المناكرة فى العقود والمعاهدات ، ومن طاول بغير حق او ماطل بدون عذر فقد حمل الظلم والاثم واستوجب اللوم والغرم ، — ولا تحل احكام القضاة ما حرمه الله ، ولا تحرم القوانين الوضعية ما احله الله — وقد تبرأ من ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى شراب الشام بقوله : اللهم انى لا احل لهم شيئا حرمته عليهم ولا احرم عليهم شيئا احللته لهم ، — ومن الاحكام الموجودة فى التشريع والمقررة فى جنس المال : ان الاعيان والذوات لا يملكها الا خالقها سبحانه وتعالى وان المراد من التملك الشرعى هو منفعة تلك الاعيان والذوات ، فذات الارض والدار والثوب او الدرهم مثلا لا يقع فيها ملك من حيث انها ذوات وانما يحصل المقصود بها من حيث ان الارض تزرع والدار تسكن والثوب يلبس والدرهم يشترى به ما يحتاج اليه ، وهذه المنافع هى التى تعود على العباد بالخير والنعمة وهى الغرض الوحيد من محاولة كسب المال .

وبما ان المال مال الله ، والخلق عيال الله، فقد سن سبحانه وتعالى نظاما حكيما لتداول المال،

ولاباحة التصرف فى اجناسه ، من دون حرص ولا شره ومن غير بخل ولا شح كما قال صلى الله عليه وسلم : ان هذا المال خضرة حلوة فمن اخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن اخذه باشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كمن يأكل ولا يشبع .

واوحى سبحانه فيما اوحى ان يصان المال عن الضياع والفساد ، والتبذير ، وان لا يوضع فيما لا خير فيه او فيما فيه اثم وضرر — لان المال خير وبركة ، والخير لا يأتى بالشر ، والبركة من الله ولا غنى للانسان عنها ، وفى حديث جابر رضى الله عنه البركة من الله ، ولانه زينة الحياة ومادة القوة ومناط العزة .

كما نهى سبحانه عن اتلافه واحراقه واهماله وتسليط السفهاء عليه ، وان كان ذلك فهو من عمل الشيطان وخيانة الانسان ، وهكذا يقول الله سبحانه « ولا توتوا السفهاء اموالكم التى جعل الله لكم قيما » « ولا تبذر تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » وفى الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن اضاعة المال .

فالمال شىء يجب حفظه لانه قيمة الحياة وسبب النهضة والنفقة يجب أن تكون على قدر الحاجة من دون اسراف ولا تشتيت ، ومن غير امساك ولا تقتير ، وكما اوصى سبحانه باقتصاد المال وصيانته اوصى ان يحتفظ بحق الغير فيه من ذوى القرابة واليتامى والمساكين وابناء السبيل .

وان يصرف فى ابواب الخير ووجوه البر ومشاريع العموم ، ومصدر ذلك قول الله تعالى : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم اجر كبير » « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل » « وفى اموالهم حق للسائل والمحروم » « فاما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر واما بنعمة ربك فحدث » .

فكل مال فيه حق لغير مالكه بحكم الشريعة الاسلامية وتضامن الاسرة الانسانية — ومن ثم كان الاسلام حريصا ان يخلق فى الانسان روحانية ايمانية تجذبه الى فعل الخير وتدفعه الى صرف المال فى مواضعه المشروعة ، وفى اوقاته المحدودة ، كما تحتم اوضاعه القانونية فى الظروف الاستثنائية — استغلاله فى مواجهة الضرورات ، ومعالجة النكبات وذلك مثل النكبة النفسية ، والحرب المعنوية التى بيتتها الصهيونية والصليبية ضد عامة المسلمين ، وضد عرب فلسطين والعرب اجمعين ، متحدية بذلك القانون والانسانية . ومتعدية على الكرامات والمقدسات ، تلك الحرب التى تركت اثرا يحز فى القلوب ويحك فى النفوس ، وان مقاومة هذا الحدث المؤلم ، والتصرف المجرم ، واسترداد الشرف المسلوب ، والتراب المغصوب الذى انتزعه الشذاذ واغتصبه النزاع — لهو حق لازم للمسلمين جميعهم ، ودين يتعلق بذممهم واعناقهم وبرهان على مدى قوة ايمانهم وصحة اسلامهم .

الا ان ذلك يتقاضى منا أن ننهض بالدين الحنيف ليوحدنا ، ونعتمد على الحق سبحانه ليؤيدنا ونتداعى بقوة المال وقوة السلاح وبصفاء القلوب ليعاودنا نصر الله الذى عهدناه فنغسل العار ونأخذ بالثار ولذلك فان اول سلاح يجب أن نهيئه للمستقبل ،

وننتضيه فى وجه الاعداء لهو سلاح الاتحاد الذى لا يقل ولا يثلم وهذا السلاح يتوفر عليه الاعداء وهو سر انتصارهم ، ولا يتوفر عليه المسلمون وهو سر هزيمتهم — فما من يهودى فى العالم الا وقلبه مع اسرائيل من دون أن يميز بين اليهودية والصهيونية لان مكر الصهيونية قد لبس عليه باليهودية ، فيجب ان نعمل كل ما نستطيعه لنكسب هذا السلاح ، ونوفره ونحافظ عليه ، رغم اختلاف الوجهة وتعدد الانظمة ويجب علينا ان ننظر الى القضايا الاسلامية، والتحررية ، بمنظار السياسة المتناخية — كما يجب ان نعاود النظر فى طريق التربية واصلاح العقلية ، وتنظيم القيادة لنكون قادرين على تصريف سياستنا وتوضيح مشاكلنا ، وتأمين مكاسبنا ، ومواجهة اعدائنا .

واذا وفرنا ذلك فقد وفرنا الدفاع عن حقوقنا واذا انتصرنا بالله فقد انتصرنا على خصومنا « يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » ولقد كان عمر رضى الله عنه وقافا عند كتاب الله عز وجل .

ثم ان اكتساب المال وحفظه من الضياع ورواجه فى الخير ونظامه فى العمل ، وانفاقه بالقصد وتوزيعه بالعدل ، هى الطريقة المثلى والسياسة الفضلى فى الاسلام والغاية من هذه التعاليم المالية، العناية بجنس المال ، اثبات فضيلة الايثار وبث روح التعاون بين ابناء البشر .

والتفادى من خطر تجمع الثروة فى ايدى فئة قليلة تفرض سعادتها وكبرياءها على غيرها من صغار الناس وضعافهم — والتحامى من وجود طائفة فى اعلى عليين واخرى فى أسفل سافلين ، تتلاعب احداهما بمصير الاخرى من دون رحمة ولا شفقة .

ومن الآفاق المدروسة والمفاهيم الملموسة — أن النقود لا تراد لعينها — وانما هى اداة طبيعية لتداول البضاعات ووسيلة لتبادل المنتوجات ، واعتبارها سلعة تباع وتشترى فى حد ذاتها تنطع من الراسماليين ، واستغلال ورغبة فى فرض الجزية والفائدة وفى تنمية المال على حساب ضعفاء الحال ولا مبرر لذلك ما دامت هى الوسيلة والقيمة لغيرها ، ومن حق المال أن يخرج ويبرز لخدمة المجتمع العام ، وأن لا يظل مخزونا فى الصناديق الموثقة يسرق اموال الناس ويضيق عليهم بما يفرض من اسعار الفائدة وانواع المراباة فى مقابلة الحاجة والضرورة — وذلك ان امتلاك المال حق مشروع ما دامت الملكية معترفا بها فى الاسلام ، واما اكتناز المال فشىء محظور ما دام المال يعتبر حكما بفضل بين الناس ، وليس من الحكمة حبس الحاكم وترك الناس فوضى لا يجدون ما يفضل بينهم .

ولذلك كان اسهام المال فى المنافع الشرعية والمشاريع العمومية ، والشركات التعاونية شيئا ضروريا فى الاسلام — واذا خرج المال وجال فى اسواق الفلاحة والصناعة والتجارة وغير ذلك من المكاسب الاقتصادية ، تهيأ العمل ، وتضخم الانتاج وقلت الحاجة والبطالة ، — وهذه السياسة الحكيمة والرحيمة التى تحارب أن يكون المال دولة بين الاغنياء ، واستغلالا لا رحمة فيه للضعفاء ، — يظهر اثرها جليا فى نظام التوارث والايصاء مثلا فانه نظام يفتت الثروات المتضخمة والاموال المتجمعة على توالى الاعوام والاجيال ، — فالملكية الواحدة تنتقل الى العديد من الذريات والاقارب بمجرد وفاة المالك لها — وقلما تبقى مادة الثروة مجمعة ومكدسة الا فى حالات لا يقاس عليها ولا ينظر اليها .

وعلى هذا كان الافراط فى التملك والثراء ،

وتجاوز المال بكثير للضرورة والجوجاء يطيح فى الاغلب مكارم الانسان ، ويتيح فى الاعم معالم الطغيان ، والانسان لا يخرج عن جهالته ، حتى يخرج القمر عن هيالته والضرورة والحاجة كلاهما يقاس بالاجيال والاعصار ويناط بالاحوال والاطوار، ولكل عصر نظامه ، ولكل نظام حسابه ، والتمول المطلوب لا بد وان يتوفر على قيود وحدود أهمها احراز المال من وجهة ،وتناوله من بابه ،ثم لا يكون فيه تضييق على حاجات الجماعة كاحتكار الحاجيات والضروريات ، وكمزاحمة الضعفاء من الصناع والعمال ، وكالتغلب على المباحات والمشاعات ، مثل امتلاك أو اغتصاب الاراضى الواسعة التى جعلها الله مسرحا للناس جميعا فهى أمهم الطيبة الكريمة التى ترضعهم بلبانها ، وتغذيهم بنتاجها وتؤويهم فى احضانها ومن اجل ذلك كان من راى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومن راى بعض اصحاب رسول الله كذلك ان أرض الخراج لا تباع ولا تشترى ، بل تبقى موقوفة لتكون قوة لهذه الامة فى أولها وفى آخرها وحتى اذا اسلم عليها من كانت بيده فانه لا يكون احق بها بل تصير الى اهل قريته — يؤدون عنها الخراج ولا يخرج هو الا بالنقود والعروض — وينضم الى المسلمين ، فيكون له ما لهم وعليه ما عليهم وها هو نبى المسلمين صلى الله عليه وسلم يشجع الناس على احياء الارض الميتة واعمارها فيقول : من أحيا ارضا ميتة فهى له ، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين — ويقول : ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فياكل منه طير او انسانَ أو بهيمة الا كان له به صدقة ، — والقانون الاسلامى فى هذا المجال احكم من القانون الوضعى ، فان القانون الوضعى يكتفى بوضع اليد على الارض خمسة عشر عاما لتصبح ملكا له سواء حركها أو لم يحركها بينما القانون الاسلامى لا يعترف بملكيتها الا اذا قام باحيائها فى ظرف ثلاث سنين والا سقط حقه منها لان الغرض هو الاستغلال والاستفادة منها للصالح العام .

ولقد كشفت الكواشف واثبتت التجارب انه اذا طغى المال وتكاثر المترفون فسدت الاخلاق وذهبت الفضائل وسادت اسباب الغواية والاغراء، وتعرضت الامم التى تسمح بذلك الى انتقام الله وغضبه ، والى ترتب المسبب على سببه وهذا كتاب الله ينطق علينا فى سورة العلق « كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى ان الى ربك الرجعى » وفى سورة الاسراء « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » فالترف والسرف يسببان الفسق والفساد ، والفساد وما معه يستدعى العذاب والخراب ، وكل امة يوجد فيها المترفون فلا بد ان يوجد فيها الفاسقون ، والذى يحد مظاهر الترف والاعتدال هو ثروة الجماعة ومستوى المعيشة وذلك فى كل زمان وفى كل مكان ، فحد الترف والحرمان وما بينهما — يرجع الى حكم الفئة القائمة — والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : كل ما شئت واشرب ما شئت ما تخطاك اثنان سرف او مخيلة .

ومن جراء هذا كله تضافرت الحكمة والشريعة على منع نظام التعامل بالربا ، ذلك النظام الذى يزيد فى بؤس البؤساء وفقر الفقراء — وهو شىء لا يقره العقل الراجح ولا يقتضيه العدل الصالح ولا يتوقف عليه الاقتصاد ، ولا يوجد فيه اى موضع للانتفاع الا ان منع الربا لا يقوم على هذه السلبيات فحسب بل وعلى اسباب اخرى منطقية — وترجمة ذلك ان نظام الربا — يشكل كسبا بدون مقابل مادى ففيه معنى الغضب والتعدى ، وبدون اسهام

في عمل ففيه الفة البطالة المفسدة للانسان والداعية الى ما لا يغنى من انواع الفضول — ويحقق للمرابين كسبا مضمونا لا يتعرض للخسائر الطبيعية كما تتعرض لها سائر الحركات المادية ، بـ وادهى من ذلك وامر انه يلحق ضررا بالمجتمع من الناحية الادبية ، ومن الناحية المدنية ، واما الناحية الادبية والخلقية فالربا لا يبدأ عمله من رغبة الانسان فى جمع المال الى ما وراء ذلك من مراحل حياته الاقتصادية الا وهو منطبع بتأثير الاثرة والبخل وضيق الصدر وعبودية المال واستبدال الحرام بالحلال الى غير ذلك من الصفات الناقصة ، — ومن المقرر فى التربية والاجتماع ان الاخلاق هى ملاك امر الانسانية فكل شيء يضر فى صميمها جدير بالرفض والترك حتى ولو كانت له منافع اخرى من جهات اخرى — واما الناحية المدنية والاجتماعية فالمجتمع — الذى يتعامل افراده فيما بينهم بالاثرة ولا يساعد احد احدا الا ان يرجو منه فائدة — والذى يكون فيه الحوز والضيق والفقر فرصة للتمول والاستثمار — والذى تكون فيه مصلحة الغنى مناقضة لمصلحة الفقير .

هذا المجتمع لا يمكن ان يقوم على قواعد ثابتة محكمة ولا بد أن تبقى اجزاؤه مائلة الى التفكك والانحلال .

وايضا فان من طبيعة المال أن يولد فى صاحبه دواعى من جنسه — فان كان حراما دعاه الى فعل الحرام وان كان مكروها دعاه الى فعل المكروه، وهكذا تكون نتائج الربا والسحت والحرام فتحريم الربا والغاء التعامل به من شأنه ان يحول دون ما هو لازم لهذا النظام من التضخم والكساد ، والاثم والفساد .

وعقلاء المفكرين ينظرون الى الغايات من وراء ستور البدايات ، ويقدرون ما يترتب على سياسة الدنيا واقتصادها من آثار سيئة واحكام خاطئة ، ويصدرون احكامهم المتجردة عن الاهواء والاعراض تمشيا مع الحق والعدل ، واعتبار المصلحة الكلية الشاملة واما الذين يشايعون مذهب الربا ويدافعون عن مشروعيته فيبررون ذلك بأنهم عند ما يقرضون اموالهم — يعرضونها للخطر ويؤثرون على انفسهم ، ولذلك كان من حق الدائن ان يأخذ كراء المال من المدين كما يأخذ كراء البيت او المركب ليكون ذلك عوضا له عن الخسارة التى تحملها باقراضه اياه ، واجرة له على ما اكتسبه باجتهاده ثم سمح به لغيره ، وهذا اذا كان المدين ياخذ المال للاستهلاك الشخصى واما اذا اخذه ليوظفه فى وظائف اقتصادية مثمرة فرب المال فى هذا الحال احق بمطالبة المدين بالفائدة على دينه.

اما انه يعرضه للخطر ويؤثر على نفسه فقد تظهر صحته ووجاهته ولكن كيف يصح أن يبنى على ذلك انه من حق الدائن ان يجعل الخطر والايثار وسيلة من وسائل الاستثمار — اما الخطر فليس سلعة تساوم فى قيمتها وليس منزلا ولا مركبا توخذ اجرته ، وكل ما هو من حق صاحب المال فى مسألة الخطر ان يتمسك برهين او كفيل يضمن له سلامة ماله — واما الايثار فما دام ايثارا فهو لا يكون اداة للكسب والنماء ، فمن أراد الايثار فعليه أن يقتنع بما لهذا العمل الخلقى والسلوك الانسانى من مزايا معنوية ومثوبات اخروية والا فليكف عن تسميته ايثارا ، ثم انه لا يستحق تعويضا عن الضرر فى اقراضه المال للغير لان المال الذى اقرضه كان فاضلا عن حاجته وعما كان يستعمله بنفسه فلا ضرر عليه فى اقتراضه لغيره — والذى استقرضك مالا يعالج به طفله او زوجه او امه أو يسد به جوعه اى شيء من العدل يحدد نوعية فرصة الانتفاع ويجعل من حقك أن تعين لها قيمة مالية دائمة .

واى انسانية تتيح لك ان تجعل نكبة اخيك موضعا لاستغلالك ومحلا لانتفاعك . (يتبع)

جهود ملوكنا العلويين في سبيل النهوض بالمغرب

بقلم **الاستاذ الشيخ محمد حدو أمزيان**
عميد كليـــة اصـول الدين بتطـــوان
ورئيـــس المجلـــس العلمـــى بهـــا

تكلمنا حول هذا الموضوع فى العدد السابق من هذه المجلة الاصيلة ، عن جهود بعض ائمتنا المقدسين من هذه الاسرة العلوية الشريفة ، فـــى سبيل النهوض بالمغرب ، وكان الحديث يدور حول اصلاح التعليم الاسلامى ، باعتباره اهم اسس الحياة المغربية الاصيلة ، واليوم نخص بالحديث احد اقطاب ملوك المغرب العظام ، وجهوده المشكورة فى سبيل النهوض بالمغرب ، والسير به قدما فى طريق الاصلاح والتقدم .

مولاى الحسن الاول (1290 — 1311 هـ)

فى الحقيقة ان مولاى الحسن الاول هـــو الملك الذى عرف داء المغرب ودواءه . واذا اردنا ان نعطى لشخصيته وصفا حقيقيا ، استنادا الى ما نعرفه جميعا عن تاريخه المجيد ، فاننا لا نأتى بجديد اذا ما قلنا انه كان ملكا مصلحا وصالحا فى نفس الوقت ، والصلاح والتقوى ميزة عامة فـــى هؤلاء الائمة الملوك الذين يفتخر المغاربة باماماتهم الدينية والدنيوية . وليس ادل على تقديس الشعب لهم من ان اى متمرد أو ثائر مجنون كان يرتمى امام أحدهم ليمرغ جبهته فى التراب اذا ما واجه مقام الملك الامام . وان افراد الشعب اذا اتيحت لهم فرصة اللقاء والرؤية لجنـــاب الملك الشريف كانوا يتمسحون بثوبه ويقبلون اى طرف من الركاب المنيف . وكان يحصل هذا لمولاى الحســـن الاول هذا الملك العظيم الذى حيث قضى عهده فى الرحلات والطواف على اجزاء المملكة المغربية القريبة منها والنائية . ذلك معناه انه كان صالحا مصلحا بمعنى الكلمـــة .

كان اسلافه السابقون يوجهون عنايتهم الى التعليم الاسلامى المتمثل فى جامعة القرويين وفروعها وقد بلغوا فى ذلك الغاية كما اوضحنا فى الموضوع السابق . ولما جاء مولاى الحسن الاول ، كان الوقت قد تغير عما كان من قبل ، والظروف قـــد تطورت سريعا . كان المغرب يمثل جزيرة وحيدة تقريبا فى محيط جبار من الاستعمار الاوربى الذى طغى على العالم الاسلامى من المحيط الاطلسى الى المحيط الهادى . فكان دوره آتيا لا ريب فيه مهما بلغ من الصمود والاعتزاز والنفور من هذا الاستعمار ومغرياته ، وامام الحضارة الحديثة التى يحمل لواءها ويتخذها ذريعة لابتلاع الشعوب والاستيلاء على خيرات بلادها .

نعم ، جاء مولاى الحسن الاول ، والمطامع الاوربية فى المغرب بلغت اشدها ، والوسائل الاجنبية قد طغت على كل وسائل الحذر والاحتياط . فأدرك العاهل المصلح انه لا بد من اتخاذ خطة جديدة واتباع وجهة جديدة ، ومواجهة الاعداء بمثل سلاحهم . ولم يكن سلاحهم من العلوم الدينية او العربية او ما مستواها ، وانما كان سلاحهم الذى شهروه على المغرب هو الحضارة الاوربية الحديثة بما فيها من الصناعات الحديثة والنظم العسكرية والنظم المالية ، وعلى العموم هو ادخال المخترعات الحديثة من قطار وكهرباء وتلفون وعربات ، الى غير ذلك من مظاهر الحضارة الاوربية التى كان المغاربة يقاومون فيها الاستعمار الاوربى الذى استعملها سلاحا ضد المغرب ووسيلة للتدخل فى شؤونه والقضاء على اعز ما عنده وهو الحرية والاستقلال . وقد طال العهد بهذه المقاومة الشعبية — والعرش المغربى دائما بجانب شعبه — ايام من سبقوا مولاى الحسن الاول من الملوك الصالحين حتى أوقفوا التيار عند حده والطامع الاجنبى عند منطلقه . ولكن الى متى ؟ فان بطلنا العظيم مولاى الحسن الاول وان عظم خطره على الاجانب وقوى شأنه وعلت هيبته بين شعبه وخارج حدود بلاده ، فان التيار كان اعظم من ان يقاوم ، والراى العام الدولى كان مجندا كله ضد المغرب فلم يجد مولاى الحسن الاول رحمه الله بدا من الاذعان ،وقبول مبدأ ادخال مظاهر هذه الحضارة الاوربية الى المغرب . ولكنه عزم على أن يأخذ ما يعرضونه عليه من اصلاحات وصناعات ، دون ان يعطى لهم ما يريدون من التدخل فى شؤون البلاد، ومن التوصل الى الاستعمار والاحتلال .

فكر مولاى الحسن الاول رحمه الله طويلا فى الامر وأدرك أن علاج الحالة لا بد له من تغيير وجهة النظر كما أسلفنا ، ومن تطوير أسلوب الاصلاح المتبع عادة من قبل الاسلاف . فانتقل من وجهة القرويين وعلوم القرويين ، من غير أن ينتقص من حقها طبعا ، الى ميدان التكوين الحديث والجندية الحديثة والبحرية الحديثة والى الثقافة الحديثة على العموم . بذلك وحده يقطع على الدول الاستعمارية الطريق الذى مهدوا له وخدموه ، والشبكة التى تفننوا فى ربطها حول المغرب . وبذلك ايضا يحقق للمغرب التقدم المادى العصرى فى ظل العزة القومية ، والسيادة الوطنية .

هكذا نشأت فكرة (البعثات الى أوربا) فى أواخر القرن الماضى . أساس الفكرة كما راينا هو ادخال مظاهر الحضارة الاوربية الحديثة الى المغرب ، ولكن على يد ابناء المغرب لا على يد ابناء الدول الطامعة فى استعمار المغرب .

ولكن الى أين يرسل هذه البعثات ؟ حتى هذا موضوع آخر محاط بالحذر والاشفاق والتفكير العميق . فكل دولة يخصها بالبعثات يكون لها امتياز قد تتخذه ذريعة للتدخل فى شؤون المغرب . لهذا قرر ان يرسل البعثة الاولى سنة 1291 هـ مكونة من (15) طالبا مقسمين بالتساوى على خمس دول اوربية هى : فرنسا ، انجلترا ، اسبانيا ، المانيا ، ايطاليا . وهى رؤوس الاستعمار الاوربى فى ذلك العصر ، وبينها اشد التنافس على المغرب الذى استشرى فيه الداء ، وعرف مولاى الحسن الاول الدواء ، فهل نراه ينجح فى العلاج والمداواة ؟

تمر الايام والبعثات تترى الى أوربا ويتزايد عدد أفرادها ، حتى بلغ عدد هذه البعثات (7) سبعا وبلغ عدد أفراد مجموعها (321) طالبا ، جلهم تخصص فى العلوم والفنون الصناعية والجندية

والصناعة الحربية · ونلاحظ ان مولاى الحسن الاول قد جرب لاول مرة القطار والكهرباء والتلفون فى عاصمة مراكش فى هذه الاثناء · كما صنع سفينة تجارية حديثة نعلم اسمها وهو (بشير السلام بخوافق الاعلام) وهذا الاسم يحمل اكثر من معنى ، اذ يعبر عن رغبة المغرب وعاهله العظيم فى السلام وفى العيش فى وئام مع جميع الدول ، وفى نسيان عهد الحروب الدينية ، والقرصنة البحرية المتبادلة · ورغم كل ذلك لم يرض الطامعين ان يكون للمغرب اسطول فى البحر ، فكيف يرضون ان يكون له علماء فنيون من ابنائه ؟ على كل حال اكتفى مولاى الحسن الاول بسفينة واحدة ، صنعها فى ايطاليا ، اقل الدول اطماعا فى المغرب ، واحترم شعور اعدائه ابقاء على ما بقى من وسيلة لاتقاء شرهم . ثم اخذ يستقبل طلابه العائدين من اوربا ، وكلهم حماس فى خدمة الوطن والعرش ، وتجندوا للعمل فى المصانع والثكنات العسكرية ، رغم الجو الخانق الذى عاشوا فيه ، ومضى عليهم التاريخ كما يمضى على الجنود المجهولين ، ولم يذكر منهم الا افرادا قليلين تقلدوا بعض المناصب المهمة .

انتقل مولاى الحسن الاول رحمة الله عليه الى الرفيق الاعلى وترك المغرب كمريض على فراش الموت · وقد عرف داءه وعرف دواءه ولكن الداء كان اكبر واقدم من الدواء ، والعلاج جاء متاخرا عن الوقت المناسب لحسم العلة الفادحة ، فلم يستطع مولاى الحسن الاول رحمه الله ان يقضى على كل الداء وكل ما استطاع فعله بعد جهد جهيد انه اخر المصاب الى حين . وهكذا لم يسع ابناءه من بعده الا ان يسلموا الامر للمشيئة ويخضعوا للظروف القاسية المتحكمة فدخل المغرب فى عهد الحماية الذى كواه بناره فكان آخر الدواء الكى كما تقول الحكمة العربية . وهكذا لما اشتد الامر ، وضاقت الصدور رجع المغاربة الى القرويين الى كنز الوطن الثمين ، والحرز المنيع والرائد الذى لا يكذب اهله فحمل راية الاسلام والوطنية وبدا التاريخ يعيد نفسه وقد فتح المغرب طريقه نحو المستقبل اللائق به وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم . رحم الله مولاى الحسن الاول وجزاه على اعماله وعلى نياته الحسنة ، ورحم كل العاملين لخير هذا الوطن ممن سبق وتاخر وانصر اللهم ملك العصر وارث سر هذه الدولة العلوية الزكية وقبلة جميع المغاربة ، الذى حقق الامانى بالهمة ووحد الاراضى بالحكمة وقاد الامة فى مسيرة الحياة الكريمة، مولانا الحسن الثانى · وبارك اللهم له فى ولى عهده الميمون سيدى محمد ، وسائر افراد اسرته الشريفة ، ما بقى فى هذا الوطن علم مرفوع فى ظل الاسلام وشريعة القرآن آمين .

من أسرار التشريع الاسلامي

بقلم **الاستاذ مولاى عبد الواحد العلوى المدغرى**
عميد كلية الشريعة ـ رئيس المجلس العلمى بفاس

تابع لصحيفة 10 من العدد الاول

من المعلوم عند المسلمين كافة وحتى غير المسلمين الذين يدرسون عن الاسلام بموضوعية ونزاهة ان الاسلام دين الوحدة لانه الدين الجامع لكل الرسالات السماوية التى بعث الله بها رسله من نبيه آدم الى خاتم النبيئين محمد بن عبد الله صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى فى كتابه العزيز وهو اصدق القائلين : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (1) ، فالمسلم يعمل دائما فى نطاق الوحدة والطاعة والنظام والصالح العام وهذا الدين هو دين جميعَ الامم والشعوب الذين هم فى نظره امة واحدة لهم رب واحد ونبى واحد قال تعالى : « قل يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض لا اله الا هو » (2) . لقد امر الله نبيه محمدا عليه السلام بتبليغ الدعوة الى الناس كافة فكل جيل من الاجيال فى كل زمان ومكان بعد ظهور الاسلام امة لهذا الرسول الكريم وكل الكتب السماوية التى انزلها الله على سائر الانبياء والرسل داخلة فى نطاق دستور البشرية الخالد وهو « القرآن » الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » فغاية رسالته اصلاح البشر والرجوع بهم الى الحنيفية السمحة من الدعوة الى توحيد الله وعدم الاشراك به والحكم بين الناس بالعدل والى الاجتماع على كلمة واحدة فى نظام الحياة التى يجب أن يملاها الاخاء والتضامن

(1) الآية رقم 12 من سورة الشورى .
(2) الآية رقم 57 من سورة الاعراف .

والمحبة والصفاء وذلك قصد البلوغ الى اعلى مراتب شرف الاعمال فى نطاق العمل الصالح ووحدة المقاصد وتثبيت اقوى اسس النظام ليحصلوا على الامن والامان والاطمئنان وليفوزوا بالسعادة فى الحال والمآل وليقوموا بتحقيق العدالة الاجتماعية فى كل الحالات والامكنة والازمان قال تعالى : « لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (3) ولكن القائمين على الدين قبل البعثة المحمدية طال بهم الامد فاختلفوا فيه وحرفوه وبدلوه وغيروه وجعلوا مكان السعة حرجا وتشددوا فيه وقصروا طاعة الله على اليسير السهل فى الاعمال فترهبنوا ولبسوا المسوح واعطوا لانفسهم حق الوساطة بين الله وبين عباده ابتغاء السيطرة على نفوس وارواح عباد الله وتوصلا الى اكل اموالهم بالباطل وقالوا لهم : نحن اهل الله واحباؤه وان العاملين المكتسبين المحترفين انما هم اهل الدنيا وعبيد المال · وفى هذه الحال التى بلغوا فيها الى هذا الحد من الاستئثار والتشدد انعم الله على عباده بنزول القرآن الكريم وببعث النبى الامى رحمة للعالمين فجاء القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتب السماوية ومهيمنا عليها فزاد فى ميدان التشريع والاحكام ما هو مناسب لعموم الرسالة وخلودها وابطال ما لم يعد ملائما منها ونفى عنها ما لحقها من التبديل والتغيير والكذب والتزوير وقرر ان التشريع منوط بحكم وعلل وبمقاصد مرادة للمشرع الحكيم وان هذه المقاصد والحكم راجعة لصالح المجتمع كافة افرادا وجماعات على السواء قال تعالى فى كتابه العزيز : « وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » (4) فشريعة الاسلام هى جامعة الشرائع المنزلة على الانبياء والرسل عليهم السلام وهى اعمها واقومها واعظمها وايسرها على الاطلاق لانها موافقة لكل ما يقتضيه التطور العقلى للانسان فى جميع ميادين البحث والاختراع واستنباط الاحكام حسب الحال والزمان والمكان .

فكل اعمال الانسان تعد دينا وعبادة لله سواء كان ذلك العمل فى الحقل او المصنع او المتجر او المعهد او المدرسة او الادارة او الثكنات العسكرية وعلى العموم فى كل ميدان من ميادين تحمل المسؤولية فى هذه الحياة متى صحت النية وسلمت الطوية وامتلا القلب بالايمان بما جاء عن الله . وجعلت هذه الشريعة السمحة البر والتقوى مقياسا لرضى الله والتقرب اليه والبلوغ الى مراتب اوليائه · وجعلت شرف الانسان بشرف الاعمال التى تتفاضل بتفضيل الشرع لها · وافضلها الجهاد الاكبر فى سبيل التعمير والاستثمار والوصول الى قمة النماء والازدهار الذى هو عدة الجهاد الاصغر . والاعمال من حيث هى كانت عامة ام خاصة كلها اعمال دنيوية من حيث الزمان الذى اديت به والمكان الذى وقعت فيه كان المقصود منها الحصول على القوة المادية او المعنوية فى الحياة الدنيا او هما معا وهى دينية اذا كان المقصود منها مع ذلك طاعة الله وتقواه ورضاه وثوابه فى الدار الآخرة . فالمقياس الذى جعله الاسلام لكون عمل الانسان دينيا او دنيويا هو قصده ونيته وتقيده بالايمان والمتابعة والاخلاص فى نطاق امتثال ما امر الله به واجتناب ما نهى عنه ولذا وجب على طائفة من أمة الاستجابة ان تتفقه فى الدين على سبيل التخصص فى علوم

---

(3) الآية رقم 24 من سورة الحديد .

(4) الآية 47 من سورة المائدة .

العقائد والعبادات والمعاملات والاخلاق والآداب لتبين للناس ما هو دين فى الاسم وما هو خارج عن الدين قال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » (5) فأفراد هذه الفرقة ذكرانا كانوا او اناثا هم العلماء الذين يعلمون الدين للناس عن طريقة الدروس النظرية او الدروس العملية التطبيقية فى سلوكهم العام والخاص . ويرشدون الناس الى ما ينبغى أن يكونوا عليه فى كل مكان وعلى كل حال اما الطائفة الاخرى من امة الاستجابة الذين يتخصصون فى العلوم التقنية والفنية والاقتصادية والهندسية والحربية والفلاحية والكونية على العموم والذين لم يتخصصوا فى علم ما ولكنهم يعرفون من الدين ما هو معلوم منه بالضرورة فقد بين الله لها الطريق الذى تنهجه اليه والسبيل الذى تسلكه فى كل عمل تريد الاقدام عليه وفى كل عقيدة تريد الايمان بها قال تعالى : « فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (6) . ومن هنا جاء اليسر ونفى الحرج فى الشريعة الاسلامية التى لم تسمح لاى كان باحتكار اطلاق وصف رجال الدين او نساء الدين على اى أحد من المسلمين لان المسلمين انما يتفاضلون بالبر والاحسان فى ميادين الايمان والعمل فليس فى الاسلام رجال دين ولا نساء دين وليس له طقوس وانما هى الاعمال الصالحات . وانما هم الرجال العاملون والنساء العاملات .

ان التشريعات التى تناولها الاسلام تناولها فى نطاق الصالح العام لجميع بنى الانسان وجعلها وسيلة لتحقيق السعادة والعدالة بين الناس كافة .

فالشريعة الاسلامية ليسرها وسماحتها ومقاصدها توافق كل ما يقتضيه التطور العقلى للانسان وتتطلبه الحياة فى نطاق الصالح العام . لذا يجدر بالمسلمين أن لا يقفوا مكتوفى الايدى فيما جد من اقضية ومن مقتضيات اقتصادية واجتماعية وسياسية اذا كان من الاحكام الجزئية الفرعية لانهم اذا وقفوا كان موقفهم خطيرا وربما كان نافيا عن شريعة الاسلام عمومها وصلاحيتها لكل زمان ومكان . فتاريخ التشريع الاسلامى وما الفه الائمة رضوان الله عليهم فى هذا الميدان وما افتوا به فى نوازل الاحكام يدل على أن المسلمين لم يقفوا فيما مضى ولن يقفوا فيما يأتى من زمان .

فراية الاسلام كانت تخفق على اراضى عدة ممالك بها امم مختلفة الاجناس والعادات والمصالح والاديان ومع ذلك فقد وسعت الشريعة الاسلامية مصالح هؤلاء الاجناس واستطاعت الدولة الاسلامية ان تدبر شؤون هذه الامم بقوانين من شريعتها بفضل علماء الاسلام الذين يفتحون ابوابا للتشريع كلما فتح الله للمسلمين ولاية من الولايات او قطرا من الاقطار فكانت حركتهم التشريعية مسايرة لحركة الفتح . فما ضاقت قوانين الشريعة عن حاجة ولا قصرت عن مصلحة ولا تنافت مع مصالح مسلم او يهودى او نصرانى او وثنى ممن عاشوا فى ظل عدالة التشريع الاسلامى وتسامحه واعتداله ولم يكن اختلاف المسلمين فى الفروع الاعتقادية مثل القول بالجبر وخلق العبد افعاله الاختيارية او الفروع العملية الجزئية كجواز انكاح المراة نفسها دون ولى ، محمولا الا على يسر التشريع وسماحة الدين ومراعاة مقاصده . ولم يكن احد من الائمة المجتهدين

---

(5) الآية رقم 121 من سورة التوبة .

(6) الآية رقم 42 من سورة النحل .

يقول بأن رايه دين يلتزم او تشريع يجب على كل واحد اتباعه . فالتشريع الاسلامى هو التشريع الوسط الصالح على الدوام الذى ليس فيه عجز عما تتطلبه الحياة العصرية وهو التشريع الذى ليس فيه نكاية او حرج على الامة ، عرف ذلك المسلمون فاستنبطوا الاحكام فى كل موطن من المواطن التى هى فى حاجة الى الاجتهاد تحقيقا للصالح العام . وعرف ذلك غير المسلمين ايضا فشهدوا بذلك قال السيد عفيفى عبد الفتاح طبارة فى كتابه (روح الدين الاسلامى) ص 255 ــ 257 ما ملخصه : لقد اعترف بهذا علماء القانون ممن لا يدينون بالاسلام ونقل عنهم ان فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم نقل ان فيه ما يكفى للانسانية كلها وان الاسلام اعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتا وشريعته تفوق فى كثير من تفاصيلها الشرائع الاوروبية ونقل عن السيد هوكونج الامريكى استاذ الفلسفة بجامعة هارفورد فى كتابه (السياسة العالمية) المطبوع سنة 1932. ان الشريعة الاسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض وان الصعوبة لم تكن فى انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشرع الاسلامى وانما فى انعدام الميل الى استخدامها وانى اشعر اننى على حق حين أقدر أن الشريعة الاسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض هـ.

ولقد ظهر فى المملكة المغربية نوع جديد فى التشريع وهو مَا تشتمل عليه كتب النوازل والاحكام وكتب قواعد المرافعات (المسطرة) وكتب الوثائق وما جرى به العمل كالعمل المطلق والعمل الفاسى ولامية الزقاق وتحفة ابن عاصم وكتب النوازل فى الحقيقة موسوعة فقهية تعد من الذخائر القانونية التى امتاز بها علماء جامع القرويين مثل نوازل الونشريسى والعلمى والوزانى وهى عبارة عن مجموعة من الفتاوى والاحكام تكونت عن اجتهادات القضاة وعلماء الافتاء فى حل عقدة النزاع المعروض على المحاكم من حيث تطبيق النص الفقهى أو تاويله تاويلا صحيحا فهى اذن نظريات فى الدعاوى المرفوعة للمحاكم قصد تحقيق العدالة فيها . وتجمع اجتهادات مبنية على فهم الواقع فى الدعوى وفهم الواجب شرعا فى هذا الواقع وكيفية تطبيق احدهما على الآخر وفهم طريق المرافعات فيها (المسطرة) ولذا قد يختلفون فى الفهم وفى كيفية التطبيق ازاء حل عقدة نزاع لاختلاف مداركهم فيها أو لخفاء بعض عوارض النزاع عند العرض والتصوير وهكذا نرى أن التشريع الاسلامى لم يقف عن السير منذ فجر الاسلام الى الآن امام النوازل والاحداث التى لا تقف بدورها حسب نواميس الكون وتقدم العمران وماذا فى الاسر من اسرار التشريع الاسلامى ويسره وسماحته فعلماء الاسلام يغيرون الاتجاه فى البحث عن السند القانونى لكل نزاع يعرض او حادثة تحدث تارة عن طريق الاستنباط والاجتهاد وتارة عن طريق الفهم وتاويل الدليل تاويلا يحقق المقصد الشرعى وتارة عن طريق مراعاة العوائد والاعراف التى لا تخالف ولا تعارض روح التشريع الاسلامى واصوله ومقاصده . وقد قال ابن قيم الجوزية فى كتابه (الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) ص 13 ــ 14 ان الله أرسل رسله وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به الارض والسماوات فاذا ظهرت امارات العدل واسفر وجهه باى طريق كان فثم شرع الله هـ لكن مع العلم بأن

أصول العقائد وأصول التشريع العملى لا تدخل فى هذا النطاق · وقال فى كتابه (اعلام الموقعين ج 4 ص 372 — 377) ناقلا عن ابى الوفاء على ابن عقيل الحنبلى (7) مناظرته مع بعض الفقهاء قال ابن عقيل العمل بالسياسة هو الحزم ولا يخلو من القول به امام وقال الآخر لا سياسة الا ما وافق الشرع فقال ابن عقيل السياسة ما كان من الافعال بحيث يكون الناس معه اقرب الى الصلاح وابعد عن الفساد وان لم يشرعه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نزل به وحى · فان اردت بقولك « لا سياسة الا ما وافق الشرع » اى لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح · وان اردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة فقد جرى من الخلفاء الراشدين ما لا يجحده عالم بالسير من القتل والمثل وكان رايا اعتمدوا فيه على مصلحة الامة · ولقد رايت ان انقل كلامه باختصار وايجاز قال رحمه الله ثم ان هذا موضع مزلة اقدام ومقام ضنك فى معترك صعب · فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرؤوا اهل الفجور على الفساد. وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد .. والذى اوجب لهم ذلك نوع تقصير فى معرفة حقيقة الشريعة · والتطبيق بين الواقع وبينها .. فلما راى ولاة الامر ذلك وان الناس لا يستقيم امرهم الا بشىء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة احدثوا لهم قوانين سياسية تنتظم بها مصالح العالم فتولد من تقصير اولئك واحداث هؤلاء ما احدثوه شر طويل وفساد عريض ثم قال فان الله ارسل رسله وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به السماوات والارض فاذا ظهرت امارات الحق وقامت ادلة العقل واسفر صبحه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه ورضاه وامره ثم قال فأى طريق استخرج به الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بمقتضاه ولا نقول ان السياسة العادلة ، مخالفة للشريعة الكاملة بل هى جزء من أجزائها وباب من ابوابها وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى والا فاذا كانت عدلا فهى من الشرع فقد حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تهمة وعاقب فى تهمة لما ظهرت امارات الريبة على المتهم · وكذلك منع صلى الله عليه وسلم الغال من الغنيمة سهمه واحرق الخلفاء الراشدون متاعه واحرق عمر بن الخطاب حانوت الخمار وقرية يباع فيها الخمر واحرق قصر سعد بن ابى وقاص لما احتجب فيه عن رعيته وحلق راس نصر بن حجاج ونفاه وضرب صبيغا بالدرة لما تتبع المتشابه فسأل عنه الى غير ذلك من السياسة التى ساس بها عمر رضى الله عنه الامة

---

(7) ابو الوفاء على بن عقيل بن محمد البغدادى الطفرى عالم العراق وشيخ الحنابلة فى وقته ببغداد كان حسن المناظرة سريع الخاطر قوى الحجة له كتاب الفنون الذى يزيد على اربعمائة مجلد على حد ما جاء فى شذرات الذهب وقيل انه بلغ ثمانمائة وقال الذهبى فى تاريخه لم يصنف فى الدنيا اكبر منه · وله كتاب الفصول ايضا فى فقه الحنابلة · فقد اشتغل بمذاهب المعتزلة فى حداثته ثم صار سنيا وكان كثير التعظيم لاحمد واصحابه والرد على مخالفيهم بارعا فى الكلام توفى سنة 513 هـ وقال اليافعى اليمنى فى مرآة الجنان ط الهند ج 3 ص 204 وفى سنة ثلاث عشر وخمسمائة توفى شيخ الحنابلة وصاحب التصانيف ومؤلف كتاب الفنون الذى يزيد على اربعمائة مجلد على بن عقيل البغدادى الطفرى وكان اماما مبرزا كثير العلوم خارق الذكاء مكبا على الاشتغال والتصنيف تفقه على القاضى ابى يعلى وغيره .. قال السلفى ما رايت مثله وما يقدر احد ان يتكلم معه لغزارة علمه وبلاغة كلامه وقوة حجته ·

فصارت سنة الى يوم القيامة وان خالفهـا مـن خالفها ثم قال واحرق عثمان رضى الله عنه المصاحف المخالفة للمصحف الذى جمع الناس عليه وهو الذى بلسان قريش الى غير ذلك من السياسات العادلة التى ساسوا بها الامة وهى مشتقة من اصـول الشريعة وقواعدها ثم قال وتقسيم بعضهم طرق الحكم الى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين الى شريعة وحقيقة وكتقسيم آخرين الدين الى عقل ونقل · تقسيم باطل بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم الى قسمين صحيح وفاسد · فالصحيح قسم من اقسام الشريعة لا قسيم لهـا والباطل ضدها ومنافيها · وهذا الاصل من اهم الاصول وانفعها وهو مبنى على حرف واحد وهـو عموم رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة الى كل ما يحتاج اليه العباد فى معارفهم وعلومهم واعمالهم· فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج الى سواها ولا يتم الايمان به الا باثبات عموم رسالته فى هذا وهذا · فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذى تحتاج اليه الامة فى علومها واعمالها عما جاء به · ثم قال وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة ولم يحوجهم الى احـد سواه فكيف يظن أن شريعته الكاملة ناقصة تحتاج الى سياسة خارجة عنها تكملها · ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة الى رسول آخر بعـده واذا أخذنـا الاعتبـار مـا تقـرر مـن ان مـا يوصـل الـى الحكـم بالعـدل شـرع وان لم ينزل به وحى فان من ذلك طرق المرافعات والوسائل الموصلة الى الحكم بالعدل وهذه الطرق والوسائل تختلف باختلاف الغايات التى توصل اليها وقد ذكرت بعضها بالنسبة للدعوى واركانها فى العدد الاول ونذكر الآن بعضها بالنسبة للجواب عنها فى صورة ما اذا اقر المدعى عليه بملك المدعى فيه للغير غائبا او حاضرا ونقدم الكلام على المقر له الغائب ثـم نتكلم على المقر له الحاضر ·

(المقر لـه الغائب)

ان المدعى عليه فى هذه الحال يكلف باثبات ان مـا بيـده ملـك للغـائب وانـه رهنـه لـه وغـاب ان ادعـى الـرهـن فان اثبـت ذلك بقـى الشىء بيـده تصرفا لا ملكـا وتنتقـل الخصومة للغائب وان عجز المدعى عليه عن اثبات ان ما بيده ملك للغائب وان هذا الغائب رهنه له · حكم عليه باليمين على ان اقراره للغائب بالملك حق· وذلك لاتهامه انه انما اراد ابطال الخصومة عن نفسه فاذا حلف انتقلت الخصومة الى الغائب ايضا· ويبقى المدعى فيه فى يد المدعى عليه تصرفا لا ملكا فى الحالين من اثبات ان ما بيده ملك للغائب او من حلفه · كما يبقى المدعى على حقه اذا قدم هذا المقر له من غيبته فاذا نكل المدعى عليه عن اليمين فان المدعى ياخذ المدعى فيه بلا يمين حوزا لا ملكا واستحقاقا · الى ان يحضر الغائب المقر له بالملك فان وجد هذا الغائب الملك بيد المدعى عليه المقر فى حالتى اقامته البينة او حلفه اخذه منه بلا يمين وان وجد الملك بيد المدعى حوزا كما ذكر اخذه منه بيمين · لاجل ان يسترد التصرف اليه لانه قد صدق المدعى عليه فى اقراره له بالملك وقد كان التصرف له قبل نشوب الدعوى · وتجرى حينئذ المسطرة فى استحقاق الرقبة بين المدعى والغائب الذى قدم من غيبتـه ·

(المقـــر لـــه الحاضر)

فاذا كان المقر له حاضرا وصدق المدعى عليه فى اقراره فان الخصومة تنتقل اليه رغم ان المتنازع فيه بيد المدعى عليه المقر · فان عجز المدعى عن اثبات الملك له ببينة الاستحاق فلا يخلو الامر من ان يحلف الحاضر المقر له بالملك لرد دعوى المدعى او ينكل فاذا حلف واخذ المدعى فيه فللمدعى تحليف المدعى عليه المقر انه صادق فى اقراره فان حلف فلا شىء عليه وان نكل حلف المدعى وغرم له المقر ما فوته عليه باقراره · يغرم القيمة فى المقوم والمثل فى المثلى اما اذا نكل المقر له الحاضر الذى انتقلت الخصومة اليه فيحلف المدعى على ان المقر كاذب فى اقراره وان المتنازع فيه حقه وملكه فان نكل عن اليمين فلا شىء له وليس له حينئذ تحليف المقر · وهذا الترابط بين المقر والمقـــر لـــه فى الدعوى يقضى :

1) بايقاف المدعى على اقرار المدعـــى عليـــه بالملك للغير ·

2) بفسح المجال للمدعى فى نقل الخصومـــة الى المقر له بالملك ·

3) بتكليـــف المقـــر باثبـــات مـــا يـــدعيـــه فتبيـــن ان الـــدعـــوى المـــوجهـــة علـــى المقـــر للغيـــر بالملـــك · هـــى نفسهـــا التى تنتقل الـــى المقر له الحاضر او الغائب · وان هذه الدعوى تبقى مرتبطة تمام الارتباط بالمدعى عليه الاول المقر للغير من حيث الحلف والنكول ومن حيث غرم القيمة فى المقوم او المثل فى المثلى ومن حيث بقاء المتنازع فيـــه بيده او نزعه منه · ووضعه تحت يد المدعى حوزا لا ملكا على مقتضى ما تفسر عنه طرق المرافعات القضائية (المسطرة) وتقتضيه النصوص القانونية من حلف او نكول او حضور او غيبة او اثبات او عجز عنه (8) ·

للبحـــث صلـــة

(8) انظر الزرقانى الجزء السابع ص 280 الطبعة الاميرية والحطاب الجزء 6 ص 118 مطبعة السعادة والخرشى الجزء 7 ص 240 لدى قول الشيخ خليل فى باب الشهادات وان قال وقف او لولدى لم يمنع مدع من بينته وان قال لفلان فان حضر ادعى عليه ·

مذهب الاسلام في التشريع

بقلم الاستاذ النقيب الحاج عبد الكريم بنجلون التويمى

يقدم الاسلام نفسه للناس ، على انه دين الحق ، والحق فى مدلوله العام عدل شامل ، بين النـــاس .

« ان الله يامر بالعدل والاحسان » .. الآية

ان الله يامر بالعدل ، بين العبد وخالقه ، بايثار حق الله ، على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هـــواه .

ان الله يامر بالعدل ، بين العبد وبين نفسه، يبعدها عما فيه هلاكها ، وبلزوم القناعة فى كـــل حال ومعنى .

ان الله يامر بالعدل ، بين العبد وبين الخلق ، ببذل التضحية ، وترك الخيانة ، والانصاف مـــن نفسه لهم بكل وِجه ، وترك الاذى والضرر .

كما يامر سبحانه بالاحسان ، الذى يشمل كل عمل ، وكل تعامل ، ويشمل محيط الحياة كلها، وفى كل العلاقات بدون استثناء .

والاحسان ، الذى ترتفع درجته عـــن كـــل الدرجات ، ليس طريقه الغلو فى الدين وانما هو جعل الانسان ، ظواهره وبواطنه على اتفاق ، فيما يقوم به من اعمال ، واخضاع منافـــع الشخص ، ومنافع الجماعة ، لاوامر الدين .

فبواسطته ، رسم الاسلام مثلا عليا للحياة ، غير المثل العليا ، التى كانت سائدة قبل ظهـــوره ، وعلى اساسه حددت الحقوق والواجبات ، للفرد والجماعة . وما الحديث الشريف ، البعيد الآثـــار فقها : « لا ضرر ولا ضرار » الا تطبيقـــا فقهيا ، لمبادئه القويمة ، التى تيسر بما فيها مـــن تدريب وتهذيب ، سبل التكافل ، الذى لا بد منه للجماعة الصالحة ، وسبل التعاون البشرى الذى هو اساس العمـــران .

ونكتفى بهذا القدر ، فى بيان ضرورة تدخل الدين ، وتدخل التشريع من اجل تنظيمحياة الناس، وتوجيهها الى كل سبيل ، يرى انه يوصل الى تحقيق هذه العدالة . فالتشريع الاسلامى ، اذن ، نظـــام شامل ، يحكم الانسان وتصرفاته ، فى كل حالاته ؛ فى خاصة نفسه ، فى صلاته بالله تعالى ، فى علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيـــه ، وفى علاقـــة الامـــة

الاسلامية بالدول الاخرى · فهو عقد بين الله وبين عبده من جهة ، اساسه الاعتراف بالسيادة الحقيقية لله تعالى ، والالتزام باقامة شرائعه ، وحفظ حدوده، وهو عقد كذلك بين الراعى والرعية ، وعقد بين الامة الاسلامية ، وغيرها من الامم المسالمة ، اساسه التعاون على البر والتقوى ، وحظر التعاون على الاثم والعدوان ·

وباختصار ، ان الاسلام ليس عقيدة دينية فحسب ، بل هو دين واخلاق ودولة لكنه لم يأت لبث مصالح الدار الآخرة ، خاصة ، وانما جاء بما يقيم امر الدنيا وامر الآخرة معا ، وبعبارة اصح ، قصد الشارع اقامة مصالح الدنيا ، حتى يتأتى فيها سلوك طريق الآخرة · ففى حديث ، اخرجه ابن عساكر ، عن انس ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه ، حتى يصيب منهما جميعا ، فان الدنيا بلاغ الآخرة . .

هذا ، والكل يعلم ، ان الاحكام الشرعية تنقسم الى قسمين : الى عبادات وما يلحق بها من الاحوال الشخصية والى معاملات وعادات ·

فالعبادات مسائل تعبدية ، لا مجال للعقل فيها ، ولا تتأثر باختلاف البيئات او تتابع الازمان ، واسرارها تتلخص فى سعادة البدن ، وحياة الروح ، زيادة على اخلاص العمل لوجه الله · والقواعد المتعلقة بها ، قواعد ثابتة ، لا تقبل التغيير ·

اما المعاملات والعادات ، فانها نشأت بعد ان اخذت الدعوة ، خطوات ثابتة ، وانتشرت انتشارا واسعا ، فتأسست الدولة الاسلامية بعد الهجرة، ومعها القانون ، لتنظيم علاقات الافراد والجماعات، مراعيا اعراف الناس ، ومصالحهم ·

يقول شيخ الاسلام ، ابن تيمية فى الموضوع « وقد بعث الله محمدا ، عليه الصلاة والسلام ، بدين وشريعة :

« اما الدين فقد استوفاه الله كله ، فى كتابه الكريم ، ووحيه ، ولم يكل الناس ، الى عقولهم ،

« واما الشريعة ، فقد استوفى اصولها ، ثم ترك ، للنظر ، الاجتهاد فى تفصيلها ·

وقال ابن رشد فى بيان ذلك : « ان الوقائع بين الاشخاص ، غير متناهية ، والنصوص والافعال والاقرارات متناهية ، ومحال ان يقابل مالا يتناهى بما يتناهى » (عن البداية) ·

ويعقب على ذلك الامام ابن القيم بأسلوبه المتين وطريقته المثلى ، قائلا : « ان النبى (صلعم) كان هو الامام ، والحاكم ، والمفتى ، وهو الرسول»·

فيكون شرعا الى يوم القيامة ، كقوله « من احدث فى أمرنا هذا ، ما ليس منه ، فهو رد » ·

وقد يقوله بمنصب الفتوى ، كقوله لهند ، امراة ابى سفيان ، وقد شكت اليه شح زوجها وانه لا يعطيها ما يكفيها . . « خدى ما يكفيك وولدك بالمعروف » فهذه فتوى ، لا حكم ، اذ لم يدع بأبى سفيان ، ولم يساله عن جواب الدعوى ، ولا سألها البينة ·

وقد يقوله بمنصب الامامة ، فيكون مصلحة للامة ، فى ذلك الوقت ، وذلك المكان ، وعلى تلك الحال ، فيلزم من بعده من الائمة ، مراعاة ذلك · على حسب المصلحة التى راعاها النبى (صلعم)، زمانا ، ومكانا ، وحالا . . » (عن زاد المعاد) ·

ومن هنا ، تختلف الائمة ، فى كثير من المواضع ولهذا كان الاجتهاد فى الاسلام ، لمواكبة التطور ، وليضع الاحكام الصالحة لطوارىء الحوادث ، ضمن القواعد الكلية العامة التى سبق ان اشرنا اليها · ومن هذه الطريقة توفرت طاقات وكفاءات من التفكير والتأمل والتحقيق والفقه فى كيان الجماعة الاسلامية ·

فاذا كان ذلك هو اساس مذهب الاسلام فى التشريع ، فان الصفة الدينية فيه ، حسب تعبير الاستاذ مصطفى أحمد الزرقا ، لا تنافى انه مؤسس

على قواعد مدنية بحتة ، منتجة لفقه متطور ، كفيل بوفاء الحاجات العصرية ، وحل المشكلات النابتة فى الطريق · بل هذه الصفة الدينية ، دعامة ، وضمانة ، لاحترام المومنين الاحكام التشريعية ، كى لا يستبيحوا ما ليس لهم من حقوق الافراد ، او حقوق الدولة ، متى فقدت وسائل الاثبات · فهى مزية لا عيب كما سنرى فيما بعد · وهذا الاحترام ، تتمناه القوانين الوضعية المحضة ، فلا تجده ، لانه لا يتأتى ، الا عن طريق العقيدة » ·

واذا رجعنا الى التاريخ العام نجد ان المجتمع الاسلامى قد تم تكوينه ، فى ثلاثة وعشرين عاما ، لم تعرف فيه سلطة دينية ، بجانب سلطة زمنية ، أو دنيوية ، كما لم يعرف فيه تخصيص مجال للدين وآخر للدولة .. كانت هناك سلطة بشرية تقول الحكم بمنصب الامامة تتبادل المشورة ، والرأى ، ممن لهم شورى ، ورأى ، فى الامة الاسلامية ·

هذا وقد اتسعت ، أحكام الفقه الاسلامى ، لجميع شؤون الحياة برهة من زمن ، ليس بالقصير · وحكم فعلا ، رقعة كبيرة من المعمورة ، تمتد من الصين الى المحيط الاطلسى اعطى خلالها اهل العلم ، وقادة الرأى ، حريتهم فى الاجتهاد والاستنباط والتحقيق فى حدود سليمة الى ان كان القرن الرابع الهجرى ، الذى انحلت فيه الخلافة العباسية ، وصاحب انحلالها ، ظهور حكومات ، تقنع ولاتها ، بالحق الالاهى للحاكمين ، وسار فى ركبهم افواج من الفقهاء · فى وقت ، قل فيه الوازع الدينى ، وكثر فيه عبث العابثين ، فاشتغلوا ، خاصة ، بقسم المعاملات والعبادات الظاهرة ، حتى نشأ تضخم هائل فى هذا النوع من الفقه ، وانقسم هذا التشريع ، عن واقع الحياة الاسلامية ·

وعند ذلك كما ورد فى المدخل الفقهى العام ، قل النشاط العلمى فى المجتمع الاسلامى ، وقعدت الهمم ، عن اكتساب مجموعة الصفات ، والعلوم ، اللغوية ، والشرعية للوصول بالفقه الى مرتبة الاجتهاد ، وخشى الفقهاء المخلصون من الصدع فى البناء الفقهى العظيم ، الذى بناه الائمة المجتهدون ؛ فأفتى المفتون ، فى النصف الثانى من القرن المذكور ، باغلاق باب الاجتهاد · ومهما خلصت النية فى اقفال باب الاجتهاد ، فان ، مما لا شك فيه ولا ريب ، ان الامر آل فى النهاية حتما الى تأخير الشريعة الاسلامية ، عن مسايرة ركب الحضارة ، حيث أصبح التشريع عاجزا عن دفعها ، وتحريكها · وانقسم الرأى فى مفهومها نفسه ، فهمت جماعة من الفقهاء فى الدين ، حسب تعبير شيخ الاسلام ابن تيمية الى التبتل ، والى ترك الناس ، والانقطاع الى العبادة الى ان حكى عن الثلة ممن عندهم خوف من الله ، ودين يمنعهم عما يعتقدونه قبيحا ، وعن ظلم الخلق ، وفعل المحارم ، انها صارت تعتقد ، ان السياسة لا تتم الا بذلك ، لانه اذا تولى المفيف سخط عليه الرؤساء وعزلوه، ان لم يضروه فى نفسه ، وماله .. »

وفى مدلول هذه السياسة وحكمها اورد تلميذه الامام ابن القيم كلاما ثمينا يشفى الغليل · قال رحمه الله : « .. هذا موضوع مزلة أقدام ، ومضلة افهام ، وهو مقام ضنك ، ومعترك صعب ، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق ، وجرؤوا اهل الفجور على الفساد ، وجعلوا الشريعة قاصرة ان تقوم بمصالح العباد ، محتاجة الى غيرها، وسدوا على نفوسهم ، طرقا صحيحة ، من طرق معرفة الحق ، والتنفيذ له ، وعطلوها مع علمهم ، وعلم غيرهم ، قطعا ، انها حق مطابق للواقع ، ظنا منهم ، منافاتها لقواعد الشرع ، ولعمر الله ، انها لم تناف ما جاء به الرسل ، وان نافت ما فهموه ، هم ، من شريعته ، باجتهادهم ، والذى اوجب لهم ذلك ، نوع تقصير ، فى معرفة الشريعة ، وتقصير فى معرفة الواقع ، وتنزيل أحدهما على الآخر فلما رأى ولاة الامور ذلك ، وان الناس لا يستقيم لهم امر ، الا بأمور ، وراء ما فهمه هؤلاء ، من الشريعة احدثوا من اوضاع سياستهم ، شرا طويلا ، وفسادا

عريضا ، فتفاقم الامر وتعذر استدراكه ، وعز على العالمين ، بحقائق الشرع ، تخليص النفوس من ذلك ، واستنقاذها من تلك المهالك . . »

واخيرا فوجىء العالم الاسلامى فى اواخر القرن الماضى ، بصدمة عنيفة ، ووجد نفسه فى عالم اجنبى ، متماسك الاركان ، انظمته مخالفة للانظمة الثقافية ، والاقتصادية ، والتشريعية التى عهدها من قبل ، فلم يترك له الاستعمار مجالا للتفكير او للروية ، حيث استحوذ على جل اقطاره واستعبد سكناها ، ارضا ، وثقافة ، واقتصادا وتشريعا . فغمر عالمنا اليأس والتردد ، واستعظم الجهود الجبارة التى تتطلبها الاخذ بزمام الامور ، واستيناف المسيرة ، فى طريق التقدم والرقى ، لولا لقاح كامن فى دمه كان يقيه شر اليأس ، ويجعله يقوى على المقاومة والنضال ، الا وهو دينه الحنيف ، ومعجزته القرآن الكريم .

وفى انتظار ايجاد الحل ، الناجع المنشود ، وتمهيدا للمعركة ، التى لا مفر منها ، برزت ، باذن الله ، ثلة ، من رجال الفقه والسياسة ، تصدوا الى شن غارات عنيفة ، ضد التقليد الاعمى المخالف لروح الاسلام الصحيح ، ومهدوا السبيل ، لفتح باب الاجتهاد من جديد ، وعن تحركاتهم نشأت الحركة السلفية وترعرعت ، فأحدثت دويا عميقا ، شرقا وغربا ، استلفتت بوادر نجاحها انظار الاستعمار ، وخدامه من الفقهاء الاجانب ، والمرتزقة من المستشرقين الذين اطلقوا جميعهم العنان لاقلامهم ، وكرسوا كل جهودهم ، وطاقاتهم للاشادة بذكر النظام الجديد ، فى تركيا والاطراء فى حق رجالاته المحنكين ، الذين اعلنوا ، بدون تردد عن العلمانية ، كاساس لسياستهم ، فى الحكم . وكانت كل الدراسات والبحوث ، التى تنشر من قبل هؤلاء المستشرقين ، والتى كانت تردد صداها الصحافة العالمية ، تعود بأسباب تقدم تركيا الصناعى والحضارى والعلمى بزعمهم ، الى دخولها مجال الغرب ، متجردة عن الاسلام ، والخلافة ، واقدامها على فصله كدين عن الدولة . يقول الدكتور محمد البهى ، فى بحث له عن العلمانية والاسلام ، فى مجال التطبيق ، ان قصد الحلفاء ، من اجبار تركيا على فصل الاسلام عن الدولة ، يوعز الى امرين :

1) الغاء الخلافة الاسلامية ، كأداة تجميع للمسلمين ، عرب وعجم على السواء ، كان هدفه ، ابعاد المسلمين ، غير العرب ، عن العرب بالتبشير بالقومية . ثم اضعاف فاعلية القومية العربية ، بين العرب ، من جديد ، بقيام جامعة دول عربية ، تؤكد استقلال كل دولة .

. . هذا . . وذاك ، مقدمة ضرورية لعزل فلسطين ، عن قوة المسلمين مجتمعين ، وعن قوة العرب ، وحدهم ، مجتمعين كذلك . . كتمهيد لقيام دولة اسرائيل .

2) الامر الثانى — عزل تركيا ، عن التراث الاسلامى ، وتكوين اجيالها القادمة ، فى بعد عن العلم بالاسلام ، وعن العرب معا . .

الى ان قال : « والغرب له مصالح اقتصادية عديدة ، واستثمارات مالية ، كبيرة فى البلاد الاسلامية : فى آسيا ، وافريقيا . ومن شأن قبول هذه البلاد ، للعلمانية ، ان يسهل للغرب طريق الحركة ، فى سبيل الاستغلال الاقتصادى ، سواء ، اكان من مصادر الثروة ، او من دائرة الطاقة البشرية » .

ويوضح كتاب : « الاسلام قوة الغد » لمؤلفه بول اشميد ، فى غير لبس ، سنة 1926 ، امكانيات البلاد الاسلامية ، من الثروة الارضية والمعدنية ، وبكاملها ، وطاقة المسلمين فى الخصوبة الجنسية ، ويسر التجمع ، واستخدام هذه القوى الثلاث ، ونداؤها الموجه ، الى الاوربيين . بالانذار . يعبر عن عمق ، الرغبة الدينية ، فى الحيلولة دون تجمع المسلمين على الاسلام .

فمن الطبيعى ، اذن ، أن يكتب مستشرق « ككولزيير » وعميد لكلية الحقوق ، (كزايس) واستاذ للحقوق ، (كبوسكى) عن الفقه الاسلامى، ويرمونه بالجمود والتأخر ، بدعوى انه لا يمكن ان يتطور وانه سيبقى جامدا الى الابد ، وليس من قصدهم ، فى الحقيقة ، الا محاربة كل الوسائل التى ، من شأنها ، ان تطور الشريعة الاسلامية ، والفقه الاسلامى ، فى بيئتهما الطبيعية ، حتى يعم القانون الوضعى ، الذى كان استعمارهم ، طيلة سيطرته يفرضه على السكان ، رغبة فى احتلال الفكر بعد احتلال التراب .

ولعله من الانصاف أن نشيد ازاء من تقدم ذكره من المستشرقين بذكر فقيه فرنسى اتجه اتجاها معاكسا لهذه الحملة الا وهو العميد « ميو » الذى اصدر كتابا اسماه « المدخل لدراسة القانون الاسلامى » وهو كتاب بديع فى تنسيقه ، فريد فى دراسته ، تعرض فيه للمبادىء الخالدة التى يمتاز بها الفقه الاسلامى ، كما تكهن ، بالدور الذى سيلعبه فى عالم المستقبل ويظهر الآن ان هذا الاتجاه الاخير سائر فى طريقه .

ورغم هذا الحصار المضروب حول التشريع الاسلامى ، فقد نفذت انظمته الى الوجود الدولى . ولعل اصدق برهان على ذلك ، القرار الذى كان اتخذه مؤتمر « سان فرانسيسكو » سنة 1944 بطلب من الوفد المصرى ، مؤازرا بجميع الوفود الاسلامية ، بقبول التشريع الاسلامى ، كاحدى الشرائع المعتمدة فى محكمة العدل الدولى .

وفى سنة 1951 ، عقدت شعبة الحقوق من المجمع الدولى للقانون ، مؤتمرا بكلية الحقوق من جامعة باريس ، تحت اسم اسبوع الفقه الاسلامى ، دعت اليه عددا من المستشرقين واساتذة القانون فى الدول الغربية والاسلامية وخلال المحاضرات ، وقف نقيب المحامين بباريس قائلا : « انا لا أعرف كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا ، عن جمود الفقه الاسلامى ، وعدم صلاحيته ، كأساس للتشريع ، يفى بحاجيات المجتمع العصرى المتطور ، وبين ما نسمعه الآن ، فى المحاضرات ، ومناقشتها ، مما يثبت خلاف ذلك . تماما ، ببراهين النصوص والمبادىء .

وجاء فى ملتمسات المؤتمر النهائية المصادق عليها بالاجماع : « أن الفقه الاسلامى ، يقوم على مبادىء قيمة ،اكيدة ، لا مرية فى نفعها ،وان اختلاف المبادىء ، فى هذا الجهاز ، التشريعى الضخم ، ينطوى على ثروة ، من الآراء الفقهية ، وعلى مجموعة من الاصول الفنية البديعة ، التى تتيح لهذا الفقه ، أن يستجيب ، بمرونة هائلة ، لجميع مطالب الحياة الحديثة .. »

(انتهى ما نقل بتصرف ، عن كتاب « دولة القرآن » تاليف طه عبد الباقى سرور) .

ومن هذا العرض الوجيز ، يتضح جليا ، أن قواعد التشريع الاسلامى ، تتسع لكل جديد ؛ ما دام ان النصوص العامة محفوظة فى جوهرها وروحها ، وانها خلافا ، لما رددته الاهواء المفرضة ، لا يقف بأى وجه من الوجوه ، فى سبيل المجتمع بحال .

فماذا جرى ، فى اغلب البلاد الاسلامية بعد تحقيق الجلاء والتحرير ؟

لا شك ان الدساتير ، فى جلها تنص على ان الشريعة ، مصدر اساسى للقوانين . لكن هل يوجد لذلك مظهر فى السلوك والتنفيذ ؟

الصراحة تقتضى ان نقول : انه لم يقو الوعى ، بتعاليم الاسلام ، فى المجتمع ولم يشق الاحسان طريقة الى واقع الحياة ، حتى يتجلى ذلك فى القانون ، الذى قصد المستعمر ، بخبث ، أن يظل استمرارا خفيا لوجوده ، وما العلمانية ، التى تركها كاتجاه فى كل المجتمعات الاسلامية ، الا معول هدام لابعاد المسلمين عن الاسلام .

لكن الحقيقة التاريخية تقتضى ، أن نثبت هنا

بأن الحيلة لم تنطل علينا ، فى فجر الاستقلال ، بفضل تجربة الاقطار الشقيقة التى سبقتنا فى الميدان ، ولعل الحجة على ذلك ، فحوى الخطاب التاريخى الذى فاه به فقيد الاسلام محمد الخامس تغمده الله برحمته ، فى حفلة تدشين لجنة تدوين القانون الاسلامى المؤسسة بمقتضى الظهير الشريف رقم 190 — 57 — 1 ، الصادر فى 22 محرم عام 1377 الموافق 19 غشت 1957 قال :

« اذا كان العهد الجديد ، قد فسح المجال لذوى الافكار النيرة ، كى يعملوا لتحقيق ما فيه رقى الامة ، وتقدمها ، فان فقهاءنا أجدر ان يكونوا فى طليعة المساهمين فى النهضة ، الشاملة التى نسلك سبيلها . ولعل اكبر وسيلة لجعل مجتمعنا المغربى سعيدا ، **هو اقامة شريعة العدل بين افراده ، وضمان حقوقهم ، وصيانة حرياتهم** ، وذلك ما يمكن من تحقيق الهدف الاجتماعى الذى جاء به الاسلام ، واقره فى نظام تشريعى شامل لجميع الاسس القانونية ، التى تكفلت بتنظيم علائق الرحمة والمودة والسلام ، والبر بين الناس، بعضهم مع بعض ، وصيانة الحقوق الخاصة للافراد ، والحقوق العامة للجماعات . ولا يخفى اننا ، امة عريقة فى ميدان الدراسات . الفقهية والشريع ، نملك من ذلك ثروة تغنينا عن اتخاذ قوانين موضوعة لدول اخرى ، غير ان كل ما ينقص هذه الثروة هو اظهارها بالمظهر الحقيقى لها .. وزاد ولى عهده جلالة الملك ، الحسن الثانى ايده الله ، قائلا : « .. حقا لقد أتم الله الدين ، الا ان التشريع ممكن فى جميع العصور ، واملى ان يركن الشباب المغربى ، الى دراسة الفقه الاسلامى والشريعة الاسلامية ، حتى يمكنهم بذلك من ان يتعاطوا الى المقارنة الفكرية — وانا اعتبرها الطريقة الوحيدة والسليمة التى يمكن لنا ان نخرج بها من العقم الفكرى للشباب المغربى .. الذى اجد له معذرة (فى جهله قوانين الاسلام) لان برامج التعليم ، وفقهاءنا فى التعليم ، نفروه من تعليم الدين ، ونفروه من المناقشة ، حيث يقولون الفقه ينقل ولا يتعقل ، ولكن الحقيقة هى ان الفقه يتعقل ، لان الفقه ما هو الا وسيلة لمعايشة الافراد فيما بينهم .. »

وهكذا ، فى بضعة اشهر ، اصبحت البلاد تتوفر على قانون مدونة الاحوال الشخصية ، ووقف نشاط لجنة التشريع ، عند هذا الحد ، ثم كرست الجهود ، فى جانب آخر ، لاقرار عدد من المبادىء العامة ، ووضع مجموعة من الاسس التى ترتكز عليها الحياة الديمقراطية ، كفصل السلط ، واعلان الحريات العامة ، وضمان حقوق الفرد والجماعة وتطبيق الحقوق الاجتماعية ، وتنظيم الحياة المحلية ، ثم الحياة السياسية ، والدستورية .

اما فيما يرجع للقوانين ، المطبقة لدى المحاكم ، فبقطع النظر عن التشريع الخاص بالمحاكم الفرنسية ، فى عهد الحماية ، العصرية فى تسمية الاستقلال ، فان التشريع فيما يخصها ، قد استمر الى غاية 26 يبراير 1965 حيث صدر قانون مغربة ، وتوحيد ، وتعريب المحاكم بالنسبة لجميع انحاء المملكة ، الذى عمم بمقتضاه ، تطبيق القوانين المعمول بها لدى المحاكم العصرية المشار اليها .

فمراجعة القوانين ، التى كثر الحديث عنها فى بعض الاحيان ، تتعلق بهذا القسم من التشريع خاصة ، والمقصود من اعادة النظر فى هذه القوانين ، فى نظرنا ، هو اولا وقبل كل شىء ، تطهيرها ، مما يعلق بها من ادران ماضى الحجر والحماية ، وتكييفها ، من جهة بما يجعلها تنسجم مع وضعية المغرب المستقل ، ومراجعتها ، من جهة اخرى ، على اساس اعتبار الفقه الاسلامى، وتقاليد البلاد واخيرا ، تلبية لمتطلبات افضل للقضاء ، بجعلها تابعة لتطورات الزمن ، ونشاط الحاجيات الحيوية الجديدة .

امـــا عن الطريقة التي يتأتى بها الاصلاح المذكور ، فالممثلون عن الهيئات التي لها صلـــة بالفقه والقضاء ، كالمحامين والاساتذة الجامعيين ، المبرزين في الحقوق ، والقضاة المنتصبين ، والعلماء في شؤون الدين كلهم من الشورى في هذا الباب كغيرهم من نواب الامة المنوط بهم امر المساهمة في وظيفة التشريع ومراقبته عن طريق الانتخاب الحـــر .

على ان التشريع وحده ، لا يحقق مدلول العدالة ، ان لم يكن مشفوعا بنظام ، قليل التكاليف يضمن لجهازها ، ان تسير سيرا سريعا وفعالا ، ومشفوعا كذلك بهيئة قضائيـــة نيرة مستقلـــة ؛ متصفـــة بالشجاعـــة والاستقامـــة ، الاخـــلاص والاستقـــلال .

وقد أعطى قضاة المسلمين للعالم ، في هذا المعنى ، امثلة رائعة ، واحتفظ بلدنا بهذه التقاليد المجيدة الى زمن غير بعيد ، تمسكا بنظرة الاسلام، الى العدالة نظرة اليها بمعيـــار الواقـــع ، اي باعتبارها في الاداء ، لا في التحمل فحسب ، اذ لا يتصور ان يكون لها اي مدلول حقيقي حتى تكون الحقوق ، المضمونة بنص الشريعة ، معززة برجال مخلصين ، يقدرونها بدقة الميزان .

والاخلاص كما هو معلوم اساسه التوحيد فلا يكون مخلصا ، من لم يكن يضمن له اعتقاده الطهارة في الاخلاق والفكر ، ولا يكـــون مخلصا كذلك الا من كان وفيا لعاطفة الاستقلال المستفادة من جوهر التوحيد .

فاذا ما فشلت القوانين المادية في اسعـــاد عالم اليوم ، وآلت بافلاسه الروحي وتحلله الخلقي وانهياره الاقتصادي ، والحاده الفكري ، فسيظل تاريخ الاسلام ، يشير الى نماذج تمثـــل روعـــة العدل ، بفضل توجيهه وتشريعه وقيادته الاولى، ونماذج تم فيهـــا الانتصـــار بكرامـــة الانسان ، وتكافلت فيها عناصر الخير ، وسادت فيها الرحمة والاحسان ، وسيبقى ، بأمر من الله ، يمثل الرشد، والنضج والكمال ، في العقيدة والشريعة علـــى الســـواء .

فالغرب ، ولما يبدأ عملية تجريد قوانينه من كل ما له مساس بالدين ، والاخلاق والفضائـــل الانسانية ، حسب ما رواه لنا سبنسر ، الا بعد الثورة الفرنسية ، فالغرب لم تكن استفادته من جوار دار الاسلام ، طيلة قرون مديدة ، مقتصرة على الميدانين العلمي والثقافي فحسب ، بل استفاد كذلك مـــن حيث النظم الادارية ، حسب شهادة العلامة ويلز ، في كتابه ملامح تاريخ الانسانيـــة حيث يقول : « ان اوروبا ، مدينة للاسلام بالجانب الاكبر من قوانينها الادارية والتجارية ، اقول ، بل استفادت من القيم الدينية والاخلاقية ايضا .

لذا يكون كل اصلاح يقتصر فيه ، علـــى تغيير الحياة الظاهرية وحدها ، كالاخـــذ بـــذنب الاصلاح لا برأسه . وذلك لان ما يملأ نفس الانسان من رواسب الماضي وعقائده المزيفة ، يقف حاجزا منيعا دون الوصول الى تغيير الاوضاع القائمة ، فاذا كـــان الانسان هو العنصر الاساسي في كل بنيان ، يجب اعداد اصلاح ، وترقية الفرد ، عن طريق نشر المبادىء القوية السليمة ، النابضـــة بالحياة والحركة ، والتطور ، كما يوجهها الاسلام الصحيح .

فالضمير اذا كان يضعف احيانا فانه كذلك ينمو ويشحذ بالتربية الفردية والجماعية وذلك عن طريق افضل العبادات ، كما عرفها ابـــن القيم رحمه الله ، وهي ما كان فيه ، اقتداء بالانبياء ، نفع متعد ، من خدمة الخلق في معاشهم ومعادهم والاشتغال بمصالح النـــاس وقضـــاء حـــوائجهم فصاحب التعبد الصحيح ، ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره بل يعمل على مرضاة الرب في كل وقت بما يقتضيه ذلك الوقت ووظيفته ، فهو مجرد ، دائر مع الامر حيث دار ، كالغيث حيث وقع ، فهو لله ، وبالله ومع الله .

شخصية المرأة فى كتاب الاسلام

بقلم **الدكتور عائشة عبد الرحمن**
استاذة الدراسات القرآنية بدار الحديث الحسنية
واستاذة التفسير بكلية الشريعة بفاس

« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » صدق الله العظيم

ليس مجهولا ما للمراة المسلمة فى الشريعة من حقوق وواجبات ، لعل منها ما لم تصل اليه المراة فى المغرب الحديث · ولعل منها كذلك ما لم تتمثله بعض المجتمعات الاسلامية ولم تبلغه المراة المسلمة الجديدة ·

الذى احسب مجهولا او يكاد ، هو ما يتعلق بشخصية المراة فى القرآن الكريم فما يزال حتى اليوم فى حاجة الى وضوح رؤية لهذه الشخصية ، ، لنرى الى اى حد تصح الفكرة العامة عنها ، فيما نقرأ لبعض مشهورى الكتاب ممن يخوضون بغير علم فى قضايا الاسلام والمراة ·

وذلك ما احاول أن اقدمه فى هذا المقال الموجز ·

ولست فيما اتناول من الموضوع اقصره على شخصية المراة المسلمة ، فالذى يقال فيها هو ما سبق أن قدمته فى كتابى عن الشخصية الاسلامية ، لا يختص بها رجال دون نساء ·

وانما اتجه هنا الى تبيين الملامح القرآنية لشخصية المراة بوجه عام ، بما تمثل من شخصيتها فى الدين بعامة ، اعتبارا بما فى القرآن من جوهر الدين كله ، وما استصفاه من التاريخ الدينى للبشرية فى خبر الامم والملل قبله · فالذى فيه عن المراة ، يعتبر به فى المفهوم الدينى لشخصيتها بوجه عام ·

فى القرآن الكريم شخصيات نسوية ذوات عدد ، فى شتى مراحل تطورها ، وعلى تباعد عصورها وتباين مجتمعاتها واختلاف عقائدها ومللها ، ومنها جميعا تتكافل الصورة العامة لشخصية المراة فى ختام رسالات الدين ·

ومما يؤكد ملحظ العموم ، ان القرآن على كثرة الشخصيات النسوية فيه ، لم يتعلق بذكر اسمائهن ، باستثناء السيدة مريم المصطفاة عليها السلام كما لم يتعلق بتحديد ازمانهن او تفصيل

تراجم حياتهن ، تركيزا على ما هو مناط العبرة وجوهر الحدث أو الموقف .

1) المـــراة ، اما وزوجا :

وابدا بأم البشرية ، فاطيل تدبر ما فـــى القرآن عن تلك المراة الاولى التى نمت اليهـــا جميعا بأصل ميراثنا وراســـخ فطرتنـــا ، مهمـــا تتفاوت دماؤنا واعراقنا وانماط شخصياتنا وتتباعد عصورنا وبيئاتنا .

الفكرة الشائعة من قديم الزمان حتى اليوم، ان حواء الام مخلوقة جانبية من ضلع آدم ، وليست مثله كيانا كاملا .

ولا يشغلنى ما جاء من ذلك فى (اسفـــار التكوين) بل الذى يشغلنى أن مسالة خلق المراة من ضلع آدم ، من المسائل الخلافية بين علمـــاء السلف ، على ما بينه الفقيه الاصولى « الامام الماوردى » (1) .

والخلاف فيها يئول الى ما روى من قول نبينا عليه الصلاة والسلام ، ان المراة خلقت من ضلع أعوج ، ان حاولت تقويمه بالشدة كسرته .

ولم افهم الحديث الا حملا على التعبـــير المجازى للترفق فى معاملة النساء ، وليس المراد منه — والله اعلم — تقرير أصل الحلقة ومثله فى الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام لحادى ركبه : « رفقا بالقوارير » لم يعن صلـــى الله عليه وسلم انهن خلقن من مادة القوارير ، بل عنى رقة مزاجهن ورهافة وجدانهن .

وفيمـــا يخص القـــرآن الكريم — وعنوان المقال مقيد به — لا نجد فيه اشارة من قريب أو بعيد الى خلق المراة من ضلع أيمن أو أيسر ، بـــل لفظ الضلع والضلوع ، ليس من معجم الالفـــاظ القرآنية على الاطلاق .

الذى فيه ينصه المحكم الموثق الـــذى لا تتعلق به ادنى شبهة من تحريف أو تبديل ان ربنا سبحانه وتعالى خلقنا من نفس واحدة :

« يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهمـــا رجالا كثيرا ونساء » (2) .

ويؤيد هذا الفهم لصريح النص القرآنـــى فى خلقنا من نفس واحدة . ان القرآن الكـــريم لا يستعمل لفظ زوجة وزجات فى مقابل زوج وازاج من الرجال ، وانما هن زوج وهن ازواج ، مثلما هو زوج لها وهم ازواج ، تقريرا لكونهما شطرى نفس واحدة ، ليس شطر منها مختلفا عن شطره الآخر ، او فرعا من اصل . .

وهذه هى آية الزوجية فى كتاب الاسلام : خلق الله الزوجين من نفس واحدة فهما شطران متكاملان . لا تقوم حياة البشرية بانفصالها ، ولا يحقق احدهما وجوده بمعزل عن شطر نفسه : تكاملا وتآلفا وسكنا ومودة ورحمة :

« ومن آياته أن خلـــق لكم مـــن انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » — الروم 30 —

للاسلام اذن أن يمن على المراة بتقرير كمال انسانيتها : خلقت هى والرجل من نفس واحدة.

واخرى مما يمن به القرآن علينا ، أن براها مما رسخ فى الفهم العام من حملها وزر الخطيئة الاولى ، بأن كانت ذريعة الشيطان الى اغـــواء ابينا آدم حتى أخرجته من الجنة .

وقد نعلم ان لعنة هـــذه الخطيئـــة ظلت تلاحق الاجيال من بنات حواء . وما نزال حتى

---

(1) الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد : كتاب اعلام النبوة ، ص 41 ط بيروت 1993 .
(2) آية النساء 1 ، ومعها آيات : الاعراف 98 والانعام 189 . .

اليوم نقذف بما ورثنا من امنا : ذريعة ابليس وحبالة الشيطان · وتتعقد شخصية المراة بطول ما يلح عليها من عقدة الذنب وميراث الخطيئة ، ترسخها فينا قصص الادباء وقصائد الشعراء وصور الرسامين وتماثيل النحاتين ، ونسمعها صباح مساء ، فى بيوتنا وفى الحياة العامة ·

واقول : ليس فى كتاب الاسلام ان ابانا آدم غوى باغراء زوجه ، وان الشيطان تذرع بها اليه · الذى فى القرآن الكريم ان آدم هو الذى نسى وعيد ربنا ، وان الشيطان وسوس اليه ، وعصى آدم ربه فغوى بصريح آيات (طه) :

« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » ·

الى قوله تعالى :

« فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فاكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى » 115 ، 121·

ولا يعنى هذا اسقاط التبعة عن زوج آدم ، بما ينفى اهليتها لاحتمال مسؤولية التكليف ، وذلك لا يكون فى الشريعة الا لقاصر او سفيه او معتوه او مجنون ·

بل تحمل نصيبها من التبعة اصالة ، لا بالتبعية لزوجها · بمقتضى كمال انسانيتها · وهكذا تقرر فى الدين من اول عهد البشرية ، ان تحمل المراة الاولى تبعتها من الخطيئة الاولى ، اذ اكلت مع زوجها آدم من الشجرة المحرمة ، فذهب كل منهما بنصيبه من الوزر ·

وهذا اصل من اصول العقيدة الاسلامية فى استقلال شخصية المراة ، تحمل تكاليف رشدها وامانة انسانيتها كاملة ، كالرجل سواء بسواء : كل منهما مسؤول عن عمله وكسبه وسعيه ، محاسب عليه ثوابا وعقابا (3) ·

مع ام البشرية ، يقدم لنا القرآن فى امهات الانبياء عليهم السلام ما نفهم منه موضع الامومة فى ختام رسالات الدين وعلى السياق الزمنى للتاريخ الدينى ، اتدبر ما فى القرآن عن اولئك الامهات ، فاراه ناط بالام الدور الجليل فى حياة الذين اصطفاهم الله سبحانه وتعالى لرسالاته ، وخصها برعايتهم وتربيتهم فى مرحلة النشأة والطفولة التى نعرف عميق اثرها فى تكوين شخصية الانسان وتوجيهه، الى آخر العمر :

« ام اسماعيل » كانت هى التى تكفلت وحدها ، والله معها ، برعاية وليدها فى اقسى ظروف حرجة ، عند ما تركه ابوه ابراهيم واياها ، بواد اجرد غير ذى زرع عند اطلال البيت العتيق بمكة ، وهى وقتذاك موحشة خلاء · ونفد ما لديهما من زاد قليل وماء ، فداحت الام المنبوذة تهرول ساعية بين (الصفا والمروة) شوطا بعد شوط لعلها تلمح على البعد اثرا لحياة واجهدها السعى وانهكها القلق ، حتى تجلت له آية الله ، فانبثق الماء من نبع زمزم ، فروى ابنها وبث الحياة فى الوادى القفر ·

وفى رعاية هذه الام شب اسماعيل واصطفاه الله تعالى لرسالته مع ابيه ابراهيم فعهد اليهما ان يرفعا القواعد من البيت العتيق ويطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود (4) ·

ودخلت ام اسماعيل تاريخنا الدينى بما كابدت من هموم امومتها ، فصار سعيها ، من اجل ولدها ، بين الصفا والمروة ، شعيرة دينية من شعائر الحج ·

عصرنا يظن انه استحدث لنا الاحتفال

---

(3) آيات الاحزاب 72 ، 73 ، والنجم 38 ، 42 والمدثر 38 ، والطور 21 ·

(4) بايجاز من تفسير الامام الطبرى بسنده عن ابن عباس لسورة ابراهيم 37 ، 38 ·

النسوى بعيد الام ، لا يدرى اننا نحتفل به من قديم الزمان ، فى موعده الذى لا يتخلف من كل عام ، حيث يسعى ملايين الحجاج المسلمين بين الصفا والمروة مهرولين ، سبعة اشواط : شعيرة من شعائر الحج ، وليس على النمط العصرى المبتذل ، ضجيج دعاية وصخب اعلان ..

بعد ام اسماعيل ، جدة العرب العدنانية ، تأتى فى القرآن « ام موسى » ودورها فى انقاذه مذكور معروف : وضعته ابان وطأة فرعون الساحقة لبنى اسرائيل ، واوحى الله الى أم موسى فأرضعته ووضعته فى تابوت والقت به فى نهر النيل ، فالتقطه آل فرعون الذى هم بذبحه ، لولا ان قالت له امراته ضارعة : « قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا »

ونجا موسى ، وكانت اخته هى التى قصت اثره ولما سمعت انه يأبى المراضع ، قالت لآل فرعون :

« هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » ؟

وصدق الله تعالى « ام موسى » وعده : رده اليها كى تقر عينها ولا تحزن · وقص علينا القرآن خبر نجاته ، بفضل نساء ثلاث : امه واخته ، وامراة فرعون (5) ·

« وام المسيح ، مريم » المطهرة المصطفاة : نذرتها أمها « امراة عمران » لعبادة الله ، وهى بها حامل · فلما وضعتها انثى لم ترجع فى نذرها، بل وجهتها لخدمة الله وعبادته ، ليبدأ تاريخ المسيحية بهذه العذراء العابدة فى المحراب ، التى اصطفاها الله على نساء العالمين ، وجعلها وابنها آية · وحسب الامومة فخرا ومجدا ان ينتمى نبى المسيحية الى امه ، فهو « المسيح عيسى ابن مريم » عليهما السلام ·

وتأتى فى ختام هذا الموكب الجليل لامهات الرسل والانبياء « آمنة بنت وهب الزهرية القرشية » أم اليتيم الهاشمى محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب : مات ابوه وهو جنين فى رحمها ، فعاشت به وله ، تكفله وترعاه فى السنوات الست الاولى من عمره (6) ثم عاشت ملء الحياة فى قلب ولدها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفى رسالته التى وضعت الجنة تحت اقدام الامهات ·

2) المراة فى مركز القيادة والقدو ة :

من القرآن الكريم ، اقدم شخصية امراة عربية فى مركز القيادة والحكم ، ذات مهابة وحكمة وذكاء ، ممثلة فى « ملكة سبأ » : تتلقى كتاب النبى سليمان ، يدعوها فيه هى وقومها ، الا يعلو عليه؛ وان يأتوه مسلمين · فلا تقضى فى رسالته برأى حتى تقرأ كتابه على رجال دولتها واصحاب مشورتها وتسمع رأيهم فيه · وتاخذهم حمية الرجولة بالاعلان عما لهم من قوة وبأس شديد ، يتركون الامر الى الملكة تقضى فيه بما ترى ، اقرارا منهم بالولاء لها والطاعة ، واعترافا بسداد رايها ، وعندئذ تتجلى شخصيتها فى الموقف الصعب ، فتقضى فيه بحكمة تقدير وذكاء انوثة ومهارة سياسية : الحرب تعرض مملكتها للخراب ، ورعاياها الاعزة للذل والهوان ، فليكن الراى ان ترسل الى سليمان بهدية ملكية مغرية ، تمتحنه بها لتعلم ما اذا كان نبيا مرسلا كما قال فى كتابه اليها ؟ او انه يدعى النبوة ذريعة الى مآرب سياسية ومطامع دنيوية ، فتتصدى له الملكة بالمقاومة وتلقاه برجالها وجنودها ذوى البأس والحمية ؟

---

(5) آية النساء 1 ، ومعها آيات : الاعراف 98 والانعام 189 ·

(6) من السيرة النبوية لابن هشام : 1 ــ 164 : 178 ط الحلبى ·

واتلو آياتها المحكمات ، من سورة النمل ، اذ تلقت كتاب سليمان عليه السلام ، وقراته على الملا من اصحاب مشورتها :

« قالت يا ايها الملا افتونى فى امرى ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون · قالوا نحن اولو قوة واولو بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تامرين ، قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون ، وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون » النمل 29 ، 35 ·

وتم الامتحان : زهد سليمان فى الهدية ، واستجابت الملكة وقومها معها لداعى الله ·

وفى مركز القدوة :

تتجلى ملامح شخصية المراة ، فيما نتلو من آيات القرآن الكريم فى نساء الانبياء كامراة نوح وامراة لوط ، ونساء الملوك كامراة فرعون وامراة العزيز ·

الملحظ الهام فى هؤلاء جميعا ، ان تبعة القدوة ، وهى فى الاسلام تبعة مضاعفة ، تضع نساء الانبياء والملوك موضع الخبرة ومضرب المثل للذين كفروا والذين آمنوا ، لا للكافرات والمؤمنات فحسب ، تقديرا لدورها الخطير فى التوجيه ، من مركز القدوة ونفاذ اثرها فى الحياة والمجتمع ·

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امراة نوح وامراة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ، وضرب الله مثلا للذين آمنوا امراة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التى احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » ·

3) شخصية البنات :

قدمها القرآن الكريم فى مثل « اخت موسى » التى قصت اثره بعد ان القت به امه فى اليم بوحى من الله جل جلاله ، ثم كانت الاخت هى التى دلت آل فرعون على ام موسى ، كافلة له ومرضعا ·

وفى « ابنتى شعيب » اذ خرجتا تسقيان ، عونا لابيهما فى شيخوخته ، فلما شق عليهما الزحام حول ماء (مدين) وتطوع موسى لمساعدتهما ، ولم يفتهما الالتفات الى قوته ومروءته وامانته ، فكان ان اقترحت احداهما على ابيها ان يستأجره « ان خير من استاجرت القوى الامين » فأرسلها ابوها اليه تستدعيه ، فجاءته تمشى على استحياء وابلغته دعوة أبيها فاستجاب ، وعرض عليه شعيب ان يزوجه احدى ابنتيه هاتين على ان ياجره ثمانى حجج او عشرا وقبل موسى وتزوج من ابنة شعيب فكانت له زوجا صالحة واهلا · صحبته ، بعد ان قضى لابيها الاجل ، فى رحلته فى برية سيناء ، واحتملت معه مشقة السفر وجدب القفر وقسوة البرد ، حتى تجلى له الله سبحانه واصطفاه لرسالته · القصص : 23 — 30 ·

القصة القرآنية تمثل لنا الفتاة فى برها بأبيها ، ومشاركتها فى حمل اعباء العيش ، وخروجها عاملة ساعية لاهلها · ثم هى تجلو من فطرة الانثى حياءها العذرى ، وتلطفها فى التعبير عن اعجابها بشخصية شاب ترنو ان يكون لها زوجا صالحا · وكانت موازينها القوة والامانة والمروءة ، لا المظهر والزى والثروة والجاه . .

ولعله لا يفوتنا ان القرآن الكريم فيما بين لنا من موضع العبرة فى قصص النساء الخاطئات ، لم يذكر فيهن فتاة خاطئة او منحرفة ساقطة · فكأنى فهمت من الشخصية القرآنية للفتاة ، ان العفة والحياء اصل فيها وفطرتها السوية التى فطرها الله عليها ·

وهذا نقيض ما زعمه بعض المؤلفين المحدثين عن (المراة فى القرآن الكريم) ·

« والسلام على من اتبع الهدى »

هدى الاسلام فى القصد إلى يسارة التكليف

بقلم **الاستاذ محمد المنونى**

من المبادىء التى قام عليها الاسلام ، القصد الى اليسارة فى التشريع ، والعمل على الرفق والتخفيف فى التكليف ، وهو ما يقرره القرآن الكريم فى عديد من الآيات :

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » سورة البقرة 184 .

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » سورة النساء : 28 .

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج » سورة الحج 76 .

والقرآن العزيز ، يجعل من هذه القاعدة ميزة يتسم بها الدين الجديد ازاء بعض التشريعات القديمة ولهذا يقول عن سلوك الاسلام مع بنى اسرائيل :

« ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم » سورة الاعراف : 157 بمعنى انه يخفف عن اليهود الذين آمنوا بالاسلام ، التكاليف الشاقة التى كانت مفروضة عليهم ، كما يدل هذا — بطريق الاولى — على رفع الاصر عن الامة المحمدية (1).

والى هذا المعنى تنظر آية البقرة : « ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا » وعند مسلم بعد ذكر هذه الآية : قال الله تعالى : قد فعلت (2) .

وبعد القرآن الكريم يشيد الحديث الشريف بهذه الميزة الاسلامية فى طائفة من الكلمات النبوية :

« بعثت بالحنيفية السمحة ، ومن خالف سنتى فليس منى » (3) وجاء تفسير نفس الميزة فى حديث رواه عبد الرزاق هكذا : « احب الاديان الى الله تعالى : الحنيفية السمحة ، قيل وما هى

---

(1) الزرقانى : شرح المواهب اللدنية ، المطبعة الازهرية المصرية ، 5 — 381 .
(2) صحيح مسلم 1 — 234 — 235 .
(3) الخطيب فى التاريخ ، حسب السيوطى فى « الجامع الصغير » بشرحه للعزيزى الذى يقول عن الحديث انه حسن لغيره ، 2 — 133 .

الحنيفية السمحة ؟ قال الاسلام الواسع » (4) ·

ومرة اخرى يذكر هذا الشعار بعنوان اليسر : « ان الدين يسر ، ولن يشاد الدين احد الا غلبه » (5) وعند الطبرانى : « ان الله تعالى رضى لهذه الامة اليسر وكره لها العسر » (6) ·

ولمقارنة هذه الظهائر مع واقع تشريع سابق جاء ان مولاتنا عائشة رضى الله عنها كانت تنظر الى لعب الحبشة ، فعقب مولانا صلى الله عليه وسلم وقال : « لتعلم يهود ان فى ديننا فسحة انى بعثت بحنيفية سمحة » (7) ·

وفى حديث آخر : « بعثت بالحنيفية السمحاء، ولم ابعث بالرهبانية والبدعة » (8) ·

وهكذا يبين القرآن الكريم ومعه الحديث الشريف اصالة مبدأ اليسارة فى تكاليف الشريعة الاسلامية وقد قال ابن العربى (9) عند آية لا يكلف الله نفسا الا وسعها : « هذا اصل عظيم فى الدين ، وركن من اركان شريعة المسلمين ، شرفنا الله — سبحانه — على الامم بها ، فلم يحملنا اصرا ، ولا كلفنا فى مشقة امرا » ·

وحتى نتبين مدى جريان هذا الاصل فى طائفة من مسائل التشريع الاسلامى ، نعرض ثلاثة نماذج فى هذا الصدد ·

وننتزع اولها من الآية الكريمة : « وكذلك جعلناكم امة وسطا » وقد جاء فى تفسير المنار (10) لتوضيح هذا الشعار : « ان المسلمين خيار وعدول لانهم وسط ، ليسوا من ارباب الغلو فى الدين المفرطين ، ولا من ارباب التعطيل المفرطين فهم كذلك فى العقائد والاخلاق والاعمال ·

ويوضح الشاطبى هذه الظاهرة افضل توضيح فى مواضع من كتاب « الموافقات » ، ومن ذلك عند ما يعرض مقاصد وضع الشريعة للتكليف حسب الفقرة التالية :

« الشريعة جارية فى التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الاعدل ، الاخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه ، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال ، بل هو تكليف جار على موازنة تقتضى فى جميع المكلفين غاية الاعتدال (11)

ويعود نفس المؤلف لتقرير هذا المقصد عندما يصل الى مباحث الفتوى ، وهو يقول هنا :

المفتى البالغ ذروة الدرجة ، هو انذى يحمل

---

(4) ابن حجر الهيثمى فى « شرح الاربعين النووية » ، المطبعة الشرفية بمصر ، ص 24 · وورد صدر الحديث معلقا عند البخارى حيث وصله فى فتح البارى 1 — 70 ، وفى مسند الامام احمد جاء لفظ الحديث : « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اى الاديان احب الى الله ؟ قال : الحنيفية السمحة » الفتح الربانى لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى » رقم 43 ·

(5) صحيح البخارى 1 — 70 ·

(6) الطبرانى فى الكبيرة ، حسب الجامع الصغير بشرحه للمزيزى ، الذى يقول عن الحديث ان رجاله رجال الصحيح 1 — 352 ·

(7) فتح البارى 2 — 370 ·

(8) رواه احمد فى المسند حسب الهيثمى فى فتح المبين ، ص 24 ·

(9) احكام القرآن مطبعة السعادة بمصر 1 — 111 ·

(10) 2 — 4 ·

(11) الموافقات المطبعة الرحمانية بمصر 2 — 163 ·

الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة ، ولا يميل بهم الى طرف الانحلال ، والدليل على صحة هذا انه الصراط المستقيم الذى جاءت به الشريعة ، فانه قد مر ان مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط من غير افراط ولا تفريط ، فاذا خرج عن ذلك فى المستفتين خرج عن قصد الشارع ، ولذلك كان ما خرج عن المذهب مذموما عند العلماء الراسخين .

وايضا فان هذا المذهب كان المفهوم من شأن رسول الله صلى الله عليه واصحابه الاكرمين (12)

والآن يأتى النموذج الثانى مما يتفرع عن مبدأ يسارة الشريعة ، وهو فى هذه المرة نبذ الاسلام للتعمق والغلو فى التكاليف ، والتعمق هو التشديد فى الامر الى غاية مجاوزة الحد فيه ، أما الغلو فهو المبالغة فى التعمق (13) .

والاحاديث فى تقرير هذا النموذج عديدة ، ومنها :

« اياكم والغلو فى الدين ، فانما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين » (14) .

وفى حديث سيدنا عبد الله بن مسعود : « هلك المتنطعون » : قالها — صلى الله عليه وآله وسلم — ثلاث مرات (15) ، وفسرهم الغزالى (16) بالمتعمقين فى البحث والاستقصاء .

وفى مسند الامام احمد : « ان هذا الدين متين ، فاوغلوا فيه برفق » (17) .

ويقول مولانا — عليه وآله الصلاة والسلام — عن مهمة رسالته : ان الله — تعالى لم يبعثنى معنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا (18) .

وهذا الحديث بمثابة توضيح للاية الكريمة : « لقد جاءكم رسول من انفسكم ، عزيز عليه ما عنتم » ، سورة التوبة : 129 ، مع الآية الاخرى : « واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم » ، سورة الحجرات : 7 .

وهكذا نتبين هدى الاسلام فى مجانبة التعمق والغلو فى الدين ، وهى ظاهرة تبدو آثارها جلية على مستويات العقائد والاعمال والاخلاق .

فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يكتفى من اعراب الارياف بالتصديق بالدين ، والاقرار به باللسان من غير تعلم دليل (19) .

وقال الشاطبى (20) وهو يقرر هذا الموضوع : « ولذلك تجد الشريعة لم تعرف من الامور الالاهية الا بما يسع فهمه ، وارجت غير ذلك فعرفته بمقتضى الاسماء والصفات ، وحضت

---

(12) المصدر 4 — 258 .
(13) فتح البارى 13 — 215 .
(14) احمد فى السند . وغيره ، حسب الجامع الصغير بشرحه للعزيزى ، الذى يقول عن الحديث انه صحيح 2 / 98 — 99 .
(15) « صحيح مسلم » 7 / 106 ، وسنن ابى داود رقم 4608 .
(16) « احياء علوم الدين » المطبعة العثمانية المصرية 1 / 84 وانظر الابى فى « الاكمال » مطبعة السعادة بمصر 7 / 106 .
(17) الجامع الصغير 2 / 30 .
(18) صحيح مسلم 4 / 116 .
(19) احياء علوم الدين 1 / 13 .
(20) الموافقات 2 / 88 — 89 .

على النظر فى المخلوقات ، الى اشباه ذلك ، واحالت فيما يقع فيه الاشتباه على قاعدة عامة ، وهى قوله تعالى : «ليس كمثله شيء» ، وسكتت عن اشياء لا تهتدى اليها العقول ، الى ان يختم عرضه هكذا :

« وعلى هذا فالتعمق فى البحث فيها ، وتطلب ما لا يشترك الجمهور فى فهمه خروج عن مقتضى وضع الشريعة الامية .. » .

والى جانب المعتقدات قاوم الاسلام الغلو فى الاعمال والاخلاق :

عن مولاتنا عائشة ، ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم دخل عليها وعندها امراة ، فقال من هذه ؟ قالت فلانة ، تذكر من صلاتها ، قال : مه ، عليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا (21) .

وعند الشيخين : دخل النبى صلى الله عليه وآله وسلم المسجد ، فاذا حبل ممدود بين الساريتين ، فقال ما هذا الحبل ؟ قالوا هذا حبل لزينب تصلى ، فاذا فترت تعلقت ، فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم — لا ، حلوه ، ليصل احدكم نشاطه ، فاذا فتر فليعقد (22) .

ويستنتج الحافظ ابن حجر (23) من هذا الحديث : الحث على الاقتصاد فى العبادة والنهى عن التعمق فيها .

وقد كان — عليه وآله الصلاة والسلام — يبالغ فى النكير على اطالة صلاة الجماعة . قال رجل : والله يا رسول الله : انى لاتاخر عن صلاة الغداة من اجل فلان ، مما يطيل بنا ، قال فما رايت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى موعظة اشد غضبا منه يومئذ ، ثم قال : ان منكم منفرين (24) .

وفى الحديث الآخر « ليس من البر الصوم فى السفر » (25) .

وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن وصال الصيام ، فلما ينتهوا ، واصل بهم يوما ثم يوما ، ثم راوا الهلال ، فقال : « لو مد بى الشهر لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم » (26) .

هذا الى حديث ابى هريرة فى النهى عن النذور : « لا تنذروا ، فان النذر لا يغنى من القدر شيئا ، وانما يستخرج به من البخيل (27) .

وفى حديث الثلاثة الذين سالوا عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانهم لما اخبروا بها تقالوها .. « لكنى اصوم وافطر ، واصلى وارقد ، واتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » (28) .

والى هنا يصل بنا المطاف الى النموذج الثالث من مستتبعات يسارة الشريعة ؛ والمعنى بالامر هى مسائل الرخص ، وكما هو معروف

---

(21) صحيح البخارى 1 / 75 — 76 — و 3 / 31 .
(22) البخارى 3 / 30 ، ومسلم 2 / 405 .
(23) فتح البارى 3 / 30 .
(24) البخارى 2 / 167 ، ومسلم 2 / 200 .
(25) الصحيحان وغيرهما : البخارى 4 / 162 ، ومسلم 3 / 247 بلفظ : ليس البر ان تصوموا .
(26) الصحيحان وغيرهما : البخارى 13 / 179 ، ومسلم 3 / 234 .
(27) مسلم 4 / 359 .
(28) البخارى 9 / 90 ، ومسلم 4 / 8 .

فانها تدخل فى ابواب الطهارات والصلاة والصيام والحج ، الى ابواب من المعاملات والاخلاق ·

وقد ندد النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالاعراض عن الرخصة الى العزيمة عن سيدنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، ان الرسول — عليه السلام — خرج عام الفتح الى مكة فى رمضان فصام حتى بلغ كراع الغميم فصام الناس ، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس اليه ، ثم شرب ، فقيل له بعد ذلك : ان بعض الناس قد صام ، فقال أولئك العصاة : أولئك العصاة (29)·

وفى هذا الاتجاه جاء عن مولاتنا عائشة رضى الله عنها قالت : صنع النبى صلى الله عليه وآله وسلم شيئا ترخص فيه ، وتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فحمد الله ثم قال : ما بال اقوام يتنزهون عن الشىء اصنعه ، فو الله : انى اعلمهم بالله ، واشدهم له خشية (30) ·

ويعلق الحافظ ابن حجر (31) على هذا الحديث هكذا : « · ان الخير فى الاتباع ،سواء كان ذلك فى العزيمة او الرخصة وان استعمال الرخصة بقصد الاتباع فى المحل الذى وردت اولى من استعمال العزيمة ، بل ربما كان استعمال العزيمة — حينئذ — مرجوحا كما فى اتمام الصلاة فى السفر، وربما كان مذموما اذا كان رغبة عن السنة : كترك المسح على الخفين .. ونقل ابن التين عن الداودى : ان التنزه عما ترخص فيه النبى صلى الله عليه وآله وسلم من اعظم الذنوب .. » ·

وفى الموطأ (32) قال مالك : « من قام الى الصلاة فلم يجد ماء فعمل بما امر الله به من التيمم فقد اطاع الله ، وليس الذى وجد الماء بأطهر منه ، ولا اتم صلاة ، لانهما أمرا جميعا ، فكل عمل بما أمره الله به » ·

زاد الباجى (33) : « وكذلك الصحيح وصاحب الجبائر ، كل واحد منهما قد عمل بما أمر الله به ، من المسح على الجبائر للشجوج ، ومباشرة العضو بالماء للصحيح ، فلا يقال : ان أحدهما ادى فرضه دون الآخر ولا ان طهارة أحدهما اتم فى باب الاجزاء » ·

ومن كلام الامام زروق (34) فى الموضوع ذاته : « العبادة اقامة ما طلب شرعا من الاعمال الخارجية عن العبادة او الداخلة سواء كان رخصة او عزيمة ، اذ امر الله تعالى فيهما واحد ، فليس الوضوء بأولى من التيمم فى محله ، ولا الصوم بأولى من الافطار فى محله ، ولا الاكمال بأولى من القصر فى موضعه ، وعليه يتنزل قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الله يحب أو توتى رخصه ، كما يكره ان تترك عزائمه » ·

والآن نزيد بتبرير لون آخر من يسارة التشريع الاسلامى ، وهو وجود مرتبة بين الحلال والحرام اسمها « مرتبة العفو » ، وهذا ما يذهب اليه ابو اسحاق الشاطبى ، حيث يثير هذا

---

(29) مسلم 3 / 247 ، والترمذى فى الجامع ص 125 ·
(30) البخارى 13 / 216 ·
(31) فتح البارى 13 / 216 ·
(32) مطابع دار القلم — بيروت ، ص 47 ·
(33) المنتقى مطبعة السعادة بمصر 1 / 112 ·
(34) كتاب قواعد التصرف ، المطبعة العلمية بمصر ، رقم 90 ·

الموضوع فى كتابه : « الموافقات » (35) فبعد ما يعرض الاحكام التكليفية بانواعها الخمسة : الاباحة ، والندب ، والكراهة ، والوجوب ، والحرمة ، يعقب بذكر « مرتبة العفو » ويوضح هذه النقطة فضل توضيح فى فقرة مطولة كالتالى :

« يصح أن يقع بين الحلال والحرام مرتبة العفو ، فلا يحكم عليه بانه واحد من الخمسة المذكورة هكذا على الجملة · ومن الدليل على ذلك اوجه :

احدهما : ما تقدم من ان الاحكام الخمسة انما تتعلق بأفعال المكلفين مع القصد الى الفعل ، واما دون ذلك فلا ، واذا لم يتعلق بها حكم منها مع وجدانه ممن شأنه ان تتعلق به ، فهو معنى العفو المتكلم فيه ، اى لا مؤاخذة به ·

والثانى : ما جاء من النص على هذه المرتبة على الخصوص فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، ونهى عن اشياء فلا تنتهكوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وعفا عن اشياء رحمة بكم لا عن نسيان ، فلا تبحثوا عنها » ، وقال ابن عباس : ما رايت قوما خيرا من اصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما سألوه الا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض صلى الله عليه وسلم كلها فى القرآن : « يسألونك عن المحيض » ، « يسألونك عن اليتامى » ، « يسألونك عن الشهر الحرام » ما كانوا يسألونك الا عما ينفعهم ، يعنى ان هذا كان الغالب عليهم ،

وعن ابن عباس رضى الله عنه انه قال : ما لم يذكر فى القرآن فهو مما عفا الله عنه ، وكان يسأل عن الشىء لم يحرم فيقول عفو ، وقيل له ما تقول فى أموال أهل الذمة ؟ فقال : العفو ، يعنى لا يؤخذ منهم زكاة ، وقال عبيد بن عمير : أحل الله حلالا وحرم حراما ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ·

والثالث ما يدل على هذا المعنى فى الجملة، كقوله تعالى : « عفا الله عنك لم اذنت لهم » الآية، فانه موضع اجتهاد فى الاذن عند عدم النص ، وقد ثبت فى الشريعة العفو عن الخطأ فى الاجتهاد حسبما بسطه الاصوليون ، ومنه قوله تعالى : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم » ، وقد كان النبى عليه السلام يكره كثرة السؤال فيما لم ينزل فيه حكم ، بناء على حكم البراءة الاصلية ، اذ هى راجعة الى هذا المعنى ، ومعناها ان الافعال معها معفو عنها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : ان اعظم المسلمين فى المسلمين جرما ، من سأل عن شىء لم يحرم عليهم فحرم عليهم من اجل مسألة » ، وقال ذرونى ما تركتكم ، فانما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على انبيائهم ، ما نهيتكم عنه فانتهوا ، وما أمرتكم به فاتوا منه ما استطعتم » وقرا عليه السلام قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت » الآية ، فقال رجل يارسول الله : اكل عام ؟ فاعرض ، ثم قال : يا رسول الله اكل عام ؟ فاعرض ثم قال : يا رسول الله اكل عام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى

---

(35) ج 1 ص 161 — 164 ·

نفسى بيده لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت ما قمتم بها ولو لم تقوموا بها لكفرتم ، فذرونى ما تركتكم، ثم ذكر معنى ما تقدم ، وفى مثل هذا نزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم » الآية . ثم قال : « عفا الله عنها » ، اى عن تلك الاشياء ، فهى اذا عفو ، وقد كره عليه السلام المسائل وعابها ، ونهى عن كثرة السؤال ، (وقام يوما وهو يعرف فى وجهه الغضب ، فذكر الساعة ، وذكر قبلها امورا عظاما ، ثم قال : « من احب ان يسأل عن شىء فليسأل عنه ، فو الله لا تسألونى عن شىء الا اخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا » ، قال انس : فأكثر الناس من البكاء حين سمعوا ذلك ، واكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم — ان يقول سلونى ، فقام عبد الله بن حذافة السهمى فقال : من ابى ؟ قال ابوك حذافة ، فلما اكثر ان يقول سلونى ، برك عمر بن الخطاب على ركبته ، فقال يا رسول الله : رضينا بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد نبيا ، قال : فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال عمر ذلك ، فنزلت الآية ، وقال اولا : « والذى نفسى بيده لقد عرضت على الجنة والنار آنفا فى عرض هذا الحائط وانا اصلى فلم ار كاليوم فى الخير والشر » وظاهر من هذا المساق أن قوله (سلونى فى معرض الغضب — تنكيل بهم فى السؤال ، حتى يروا عاقبة السؤال ، وجل ذلك جاء قوله تعالى : « ان تبد لكم تسؤكم » ، وقد ظهر من هذه الجملة ما يعفى عنه ، وهو ما نهى عن السؤال عنه ، فكون الحج لله هو مقتضى الآية ، كما ان كونه للعام الحاضر تقتضيه ايضا ، فلما سكت عن التكرار ، كان الذى ينبغى الحمل على اخف محتملاته وان فرض أن الاحتمال الآخر مراد فهو مما يعفى عنه .

ومثل هذا قصة اصحاب البقرة لما شددوا بالسؤال وكانوا متمكنين من ذبح اى بقرة شاءوا وشدد عليهم حتى ذبحوها « وما كادوا يفعلون ».

فهذا كله واضح فى ان من افعال المكلفين ما لا يحسن السؤال عنه وعن حكمه ، ويلزم من ذلك أن يكون معفوا عنه ، فقد ثبت ان مرتبة العفو ثابتة ، وانها ليست من الاحكام الخمسة

توضيح :

اعتمدت هذه التعاليق فى الاحالة على :

— صحيح البخارى : المتن المطبوع على هامش البارى : المطبعة الكبرى الميرية فى اغلب الاجزاء ، مع المطبعة الخيرية بالنسبة للجزئين : 1 ، 13 .

— صحيح مسلم : المتن المطبوع على هامش شرحى الابى والسنوسى : مطبعة السعادة بمصر.

— سنن ابى داود : نشر دار احياء السنة النبوية .

— جامع الترمذى : ط . الهند .

— الجامع الصغير للسيوطى : المتن المنشور ضمن شرح العزيزى بالمطبعة الازهرية المصرية .

معالم الخلود والاصالة والالتزام في التشريع الاسلامي

بقلم الاستاذ محمد بن ادريس العنبرى العيسوى

تقديم :

يتحدث التاريخ عن الرسالات الالهية وعن الحركات الاصلاحية وعن نشوء المذاهب والدعوات المختلفة · فنجده كثيرا ما تطيش سهامه وتخطىء تقديراته وتستبد به أخلاط تمنعه من تقييمها التقييم الصحيح الذى يستشرف الآفاق القريبة والبعيدة ليضعها فى الميزان الذى يشكل لها حجمها وقيمتها ومكانتها ويعرف بين مستوياتها واهدافها على اساس من النصفة والنزاهة والاعتدال ·

وقد تتابعت البحوث واسترسل الناس فى نشاطهم وفى تقصى الاحداث والاستنتاجات وكل رجع بحصيلته على مقدار ما يملك من قوة زاد المعرفة فى مجال البحث · وعلى مقدار ما يملك ايضا من تغيير ما بنفسه وتخليه عن حظوظه الخاصة · وليس بالهين ان يضعوا ايديهم على الحقيقة الا اذا استهدفوها وهم فى حال تجرد من دوافع لا يرضى عنها البحث العلمى النزيه · واذا كانت الاديان السماوية كلها تقدم اسمى ما يصل اليه الانسان من فهمه للحياة وانتفاعه بها ومن قدرته على تصفية مشاكلها وما تتطلبه بكل الحاح على اساس تقدير العواطف والمواقف الانسانية — فان فكرة الاسلام كانت أوسع مدى وابعد غاية وابقى على مخلفات الدهر · قد اغنت الوجود الانسانى والهبت حسه وصانت له كرامته بما وهبها الله تعالى من سعة الافق ورحابة الصدر والاضطلاع بالتوفيق بين مقتضيات الحياة· واذا كنا نفتقد الكثير من انصاف رسالة الاسلام · فقد خلد له التاريخ — رغم ما يطفو على سطحه فى بعض الاحيان — اكثر من مثل واكثر من معنى على أصالته والتزامه وتحديه لمن يريد ملاحقته · ولنقتصر على مثل واحد · وهو يتمثل فى هذا التجمع · البشرى الضخم الذى التف حول كلمة الاسلام والذى لا نجد له نظيرا فى التاريخ · وفى هذا المجتمع المفتوح لجميع الاجناس والالوان واللغات وفى هذه الامة الاسلامية التى اصبحت ذات معالم واضحة وذات قيم وذات قوى منضبطة تسير على خطط مرسومة كتب لها ان تتحول من مجموعات متفرقة مسحوقة فى جملتها الى جماعة ضاربة فى اعماق التاريخ لها اثرها البارز ومكانها المتميز فى استيصال

شائعة الفساد فى الارض والقضاء على قوى الشر ·

وقد عكف الدارسون والراصدون للحركة الاسلامية بالبحث والتحليل عن اسباب هذا التجمع الفريد الذى جمع كثيرا من الخصائص الانسانية والفضائل النفسية التى انعكست على الرعيل الاول من سلف هذه الامة الذين اتسعت امامهم الدنيا واسلمت لهم قيادها ولانت لهم الاحداث ونزلت عن قسوتها ·

وكلما امعنا النظر فى البحث عن علة ذلك وعن علة هذه المفارقات بين ماضى المسلمين وحاضرهم لا ينتصب أمامنا الا عامل واحد وهو : استكمال تلك الصورة الاسلامية الحقيقية فى نفوس المسلمين الاولين والتى هى مركز الثقل فى حياتهم ومركز الانطلاق فى جميع تصرفاتهم وتواريها أو انطماس معالمها عن الآخرين · فانه — كما يقول علماؤنا — العلة الواحدة لا يمكن ان تصدر عنها معلولات مختلفة · هكذا شاءت عناية الله أن يكون هذا الرعيل خير من يفهم عن الاسلام الكثير ويعمل من اجله الكثير وخير من يفهم عنه الناس الكثير كذلك · فكانوا بحق احداثا عظيمة تمثلت فى أشخاص ومثلا حية — الى الابد — تغدو وتروح بين الناس ·

ومن أجل ذلك حينما يتجاوزهم الحديث الى الاجيال اللاحقة لِشد ما تكون دهشتنا حينما تفاجئنا الاحداث بضروب من الصياغات والاتجاهات التى تنمحى معها الخصائص الاسلامية الزاخرة بالقيم النابعة بالمثل · فلا عجب اذا اصبح موقفها من دينها غامضا — وشهدت فى نفسها — كما شهد لها الناس — فسادا فى الراى وفسادا فى الاخلاق وفسادا فى العقيدة وفسادا — بصورة واضحة — فى الارتباطات العامة ·

وقد كان لهذا الانحراف العميق عن الخط الاسلامى الذى فقد حيويته ومناعته المعهودتين فى المفهوم الاسلامى منذرا بفشل المسلمين فى عصورهم الاخيرة · وبتدفق المحن عليهم وطغيان التأثيرات السلبية على حياتهم · وجديرا بخلق عقد مستعصية فى نفوسهم وتصورات وحساسيات مريضة لا سبيل للخلاص منها الا بالاستنجاد بالمشاهد الاسلامية التى تبصر الناس بمعاثر زللهم وتنير امامهم السبيل · ومتى تم ذلك وتخطت الاجيال خطوط الانحراف الذى تحدثنا عنه آنفا · بل سلكوا ازاءه مسلك التحدى والتصدى لكل المحاولات فانها ننتظر لها ميلاد تلك الصورة الحقيقية الاسلامية فى نفسها ولجميع الاجيال · وستنطبع لا محالة — حينئذ — بطابع النمو والتكيف الملائمين للفكرة الاسلامية التى تسعى لخير الانسان وما حول الانسان · ويحق لنا القول — حينئذ — بأن المجتمعات الاسلامية ليست صورة تاريخية يبحث عنها فى ذكريات الماضى · او فترة معينة بحدودها وملامحها وانما هى صورة ازلية خالدة لا ينكر عطاؤها ولا تتبدل سماتها فى كل زمن وفى ملتقى جميع الاجيال · والآن · وبعد ما وقفنا على هذا التصنيف الذى نود ان تنتهى ظروف ظهوره بين ماضى المسلمين وحاضرهم · وكيف استحالت نفسياتهم الجبارة الى نفسيات هزيلة لا تستطيع النهوض ولا التحرر من الضغوط المختلفة ووقفنا ايضا على العنصر الرئيسى الذى أعطانا معنى أوضح لتفكك الشخصية المسلمة وتحلل نفسيتها

وتقلص ظلها — ننتهي الى القول بأن الاسلام لا يلتزم تصحيح اخطاء الناس حينما يفتقدون الكثير من تصوراته وتفسيراته واشواقه فى غيبة عن شعورهم بالحاجة الى تلافى تلك الاخطاء والاحتراس من الوقوع فى مثلها ·

الا ان الامر الجدير بالاعتبار بعد هذا كله انه وان استنفدنا ما لدينا من جهد فى تصوير الحقيقة الاسلامية وسيطرة مفاهيمها لكل ما له علاقة بسيرة الحياة وسريرة البشر على سائر المفاهيم الاخرى وسعة كفاية تشريعاتها — فان كل ذلك يبقى دون الهدف المطلوب ما لم تنزل الى مستوى رصد الدعوة الاسلامية ازاء المذاهب والحركات العالمية الاخرى بجميع انظمتها السياسية والاجتماعية — ومقارنتها بها والتمييز بين معطياتها والوقوف على مواكب احداثها بكامل الدقة والتحليل وبكل تأكيد سيكون ذلك من اقوى العوامل على قياس الاشياء والحكم عليها حكما صادقا ووضعها فى موضعها الصحيح وسيسدى ذلك للتاريخ صفحة بيضاء نقية لك ان تستفيد منها ما تشاء · بالاضافة الى انه سيتيح للمسلم فرصة التعرف على مكانة رسالة دينه من بين الرسالات ومن بين الحركات والمذاهب الوضعية الاخرى · وعلى مكانه من دينه هو ايضا كما سيتيح ايضا للمسلم التعرف على قيمة الشائعات والتزييفات التى تثار حول الاسلام وعلى الاباطيل التى تصدى لها الاسلام نفسه فى وثائقه ونصوصه وحمل هذه الرسالة الواعون الذين اخلصوا دينهم لله من ذوى الاوعية النقية من اهله · لذلك لا يمكن بحال ان تبرز أمامنا صورة الاسلام على وجهها الحقيقى ولا سبيل لتصور فكرته فى مداها الواسع التى احتضنت الكون والحياة الا اذا نزلنا الى مستوى حركات عالمية مضت ووقفنا على مشاهدها ونشوئها وارتقائها بما لها من عبقريات ومذاهب وفلسفات · ووقفنا ايضا على سير اباطرة واكاسرة وعروش وما سجل لهم التاريخ من ادوار واحداث جسام ثم لنستمع لما تردد على الشفاه وما فعلت بهم الايام وكيف توارى ذلك كله عن الانظار ولم يبق منها الا اطلال دراسة قد طواها الدهر فى مشاهد ومصارع لا تخطئها العين قد ارتسمت على مهاد التاريخ ·

قام الاسكندر بفتوحاته الخاطفة قبل الميلاد · يتكلم فينصت له الزمان ويخطب فيسجل له قلم التاريخ فهل احتفظت له الايام بالامتداد وبمرافقة التصنيفات الحضارية من بعده وبملامح البقاء · وهل كانت حظوظه الواسعة التى امتدت خاصرتها دهرا طويلا كتب لها أن تكون اداة حية وميراثا ضخما لمن بعده · لنسأل الشاعر العربى حيث يقول :

تسترت عن دهرى بظل جناحه
فعينى ترى دهرى وليس يرانى
ولو تسأل الايام ما اسمى ما درت
وأين مكانى ما عرفن مكانى

ومرت الدولة الكسروية الفارسية التى شاطرت العالم المتمدن وأملت عليه رسالتها وغرقت فى وحل المدنية المتعفنة الى اذقانها وتخطت المقاييس فى الانهماك فى الترف والنعيم وصنوف اللذاذات واوغل ملوكهم فى كل جهة واستباحوا لانفسهم ما لم تبح لهم الاعراف والتقاليد ·

« يتبع »

ثالث ثلاثة فى الضبط والاتقان (*)

بقلم **الاستاذ مولاى التقى العلوى**

اثناء القرن الحادى عشر الهجرى بدات تدور على السنة الناس فى الاوساط العلمية مسالة الحفاظ الثلاثة التى رفعت البعض منهم الى اعلى عليين وهوت بالبعض الآخر منهم الى اسفل سافلين دون حجة ولا برهان ونصها : حفاظ المغرب فى وقتنا ثلاثة حافظ ضابط ثقة وهو احمد ابن يوسف الفاسى (971 — 1021 هـ) وحافظ ضابط غير ثقة وهو ابو العباس احمد المقرى ؟ ! (— 1041) وحافظ غير ضابط ولا ثقة وهو ابو محمد عبد الله بن على بن طاهر الحسنى !!! ومنذ ذلك الحين الى يومنا هذا والناس يدورون حول هذه المسالة ويرددون صداها فى كتاباتهم واحاديثهم نظما ونثرا بمناسبة او بدونها · والملاحظ ان المؤرخين الاولين وحتى الكتاب المعاصرين لم يتوجه اهتمامهم فى هذه المسالة الا لشيئين اثنين فقط وهما هل ينسب هذا الحكم الذى لا معقب له فى نظرهم الى الشيخ محمد بن ابى بكر الدلائى رفيق ابن طاهر فى الدراسة ؟ او ينسب الى غيره؟ اما صحة هذا الحكم فى حد ذاته او عدمها فلم يتجرا اى واحد منهم فيما نعلم على اقتحام بابه المغلق · مع أن المنطق يقضى بأن توجه العناية والاهتمام الى المقول لا الى القائل · لان ذلك يبعدنا عن الزلل ويجنبنا السير فى الطرق التى تؤدى الى تقديس الهياكل وعبادة الاشخاص وتكثيف الحجب امام الرؤيا الصحيحة لهذا كله توخينا ان نعيد النظر فى المسالة بمنظار جديد · ففيما يرجع الى ابى العباس احمد المقرى فالامر فى غاية ما يكون من البساطة وعدم التعقيد ولا حاجة بنا فى نقض هذا الحكم المتعلق به الى كثرة الجحاج واستقصاء الملابسات ذلك ان انتاج هذا العلامة الكبير ما يزال حيا يتحدى الزمان · وبين ايدى الناس اليوم منه مقدار كاف للحكم له او عليه فما على من اهتم بذلك الا ان يقابل فيما بين النصوص الموجودة فى كتاب نفح الطيب او غيره من انتاجه الغزير · وبين ما هو موجود من الكتب التى انحدرت منها تلك النصوص ليتاكد من الثقة الحميدة والامانة والنزاهة والضبط وجميع الخصال الحميدة التى كان يتحلى بها هذا الحافظ الجليل · وليعلم علم اليقين تلك السموم المبطنة والنوايا الخبيثة التى يحملها هذا التقسيم الفاسد والحكم الجائر الذى ما تزال الالسنة تلوكه الى يوم الناس هذا لسوء الحظ · والغريب فى الامر ان الغيرة لم تحرك اى واحد من اصحاب الابحاث الحرة والنقد النزيه الذين يستفيدون من انتاج ابى العباس فى المشرق والمغرب لكى يرد

(*) تابع لما نشر فى العدد الاول من هاته المجلة فى ترجمة الحافظ بن طاهر الحسنى ص 50 ·

الحق الى نصابه وينتصف لهذا الحافظ المملاق والعبقرى الفذ الذى لا يأتى الزمان بمثله ·

واما بالنسبة لصاحب الترجمة الذى ضاع انتاجه كله ولم يصل الينا منه اى شىء يمكن لنا ان نعتمد عليه فى هاته الدراسة فلا محيد لنا من الاستضاءة بمعرفة آراء بعض تلامذته الذين هم اعلم الناس به من غيرهم أو تلامذة تلامذته ومن فى طبقاتهم من المؤرخين المتصلين بعصره · والحق أن كتابة هاته الجماعة تتفق على وصف صاحب الترجمة بالحفظ والضبط والثقة والامانة والزهد وغير ذلك من الاوصاف الحميدة التى ارغمتصاحب فهرس الفهارس على أن يقول فى ترجمة هذا الشيخ انها ترجمة طويلة وطنانة (1) ·

من اقدم تلامذة ابن طاهر واطهرهم ذلكم الشيخ الامام الزاهد الورع المتبتل السيد احمد وعلى السوسى الهشتوكى البوسعيدى « الصنهاجى » (990 — 1046) الذى كان يزن اقواله وأعماله وزنا بلغ الغاية والدقة فى التحرى وعدم المحابات لاى واحد كيف ما كانت قيمته · وآية ذلك انه لم يتلبس من هاته الدنيا الا بما لا بد منه واذا عرف بأحد كيف ما كان فلا يذكر له الا الاوصاف الظاهرة التى يمكن ادراكها لجميع الناس وذلك مثل الحافظ والعالم والفقيه · ويمتنع امتناعا كليا عن الاوصاف التى تقابلها والتى لا تصل اليها الافهام وذلك مثل القطب والغوث والعارف وامثالها · هذا الرجل الذى ارينا كه من خلال ترجمته المعروفة عند المؤرخين (2) هو الذى كتب فى كتابه بذل المناصحة فى فعل المصافحة يقول فى ابن طاهر : فهارس سيدى عبد الله محيطة اسانيده الكثيرة وكفيلة بالاحاطة بعلم هذه الامة · وقال فيه ايضا سيدى عبد الله من كبار الشرفاء وعظماء العلماء · كان ثاقب زمانه فى حفظ ايام الصحابة وانساب العرب وسير السلف الصالح « وكان ذا » بصيرة بالمذاهب السنية والابتداعية ولسان الانتقاد على الفرق الباغية (3) ·

اما خاتمة المحدثين بالمغرب الشيخ محمد بن سعيد (1007 — 1089) المرغتى السوسى (4) صاحب المقنع فقد ترجم لشيخه ابن طاهر ضمن اجازته لبنى ناصر ترجمة طويلة النفس طافحة بالثناء العاطر ضواعة بالمحبة والاخلاص متدفقة بالاجلال والتقدير الذى لا يدع مجالا للشك فى تزكية صاحب الترجمة · ولطولها سنكتفى منها ببعض الفقرات قال فيها : « هو سيدى ومولاى ومحياى ، ومعتمدى وسمط عيانى ، خاتمة الحفاظ بالمغرب الاقصى وراوية الرواة الذى جمع فأحصى ، المحدث الفقيه ، والاستاذ النبيه ، المفسر المحقق ، والمؤرخ المدقق ، النحوى اللغوى ، الاصولى البيانى العالم العلامة البارع الفهامة ، الزاهد الورع ، والسنى المتبع ، الناصح ، الولى الصالح ، التقى النسيب، النجيب اللبيب ذو النسب الشريف ، والحسب المنيف ، الحبر الباهر ، والبحر الزاخر ذو العلم الشامخ ، والفضل الباذخ ، والقدر الشامخ ، سيدى ومولاى عبد الله بن سيدى ومولاى على بن سيدى ومولاى طاهر بن سيدى ومولاى الحسن بن سيدى ومولاى يوسف بن سيدى ومولاى على الشريف الحسنى السجلماسى قرات عليه قدس الله روحه، واوجب له اعلا الفردوس وبحبوحه ، ختمة من القرآن براوية نافع وابن كثير · بطريقتى قالون وورش فى الاولى ، والبزى وقنبل فى الثانية واجازنى رحمه الله فى ذلك · وسمعت عليه ربع صحيح البخارى بقراءة ابنه الحجة المحقق ابى محمد سيدى عبد الهادى · وسمعت منه كثيرا من

---

(1) فهرس الفهارس ج 1 ص 353 ·
(2) انظر ترجمته فى الصفوة والنشر وطبقات الحضيكى والاعلام للتمارجى وغير ذلك ·
(3) نشر المثانى ج 1 ص 166 وفهرس الفهارس ج 1 ص 353 وغيرهما ·
(4) انظر ترجمته فى الصفوة والنشر وطبقات الحضيكى والاعلام وغير ذلك ·

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم · وكثيرا من التاريخ والفقه وعلوم الحديث وعلوم القرآن والرسم وغير ذلك من النحو والبيان واللغة وتفسير القرآن والناسخ والمنسوخ والغريب والتاويل وسبب النزول والاعراب والتصريف والتصوف والاشارات وغير ذلك مما يطول ذكره وحدثنى رحمه الله تعالى بذلك كله واباح لى روايته عنه · ورواية ما رواه عن شيوخه · وما وضعه من التاليف والفوائد فى كل علم · نظما ونثرا · وكان ذلك عام سبعة وثلاثين والف 1037 بجبل تاغيا من بلاد مدغرة ايام محنة شرفاء سجلماسة وكتب لى بخطه رحمه الله تعالى .. (5) بعد هاته الفقرة المشرقة التى دبجها يراع المرغتى تابع كلامه فى سرد شيوخ أستاذه وسرد اسانيده الحديثة التى ترتقى الى ابن غازى العثمانى وابن حجر العسقلانى والامام ابى عبد الله البخارى · واسانيده الى هذا الاخير كثيرة اعلاها ما يرويه عن الفكيكى وخروف التونسى عن قاضى القضاة كمال الدين الطويل القادرى عن شهاب الدين عن ابن ابى المجد عن انحجار (6) عن ابن الزبير عن ابى الوقت (7) عن الداودى عن ابن حموية السرخسى عن ابن مطر (8) عن الامام أبى عبد الله البخارى (9) وقد نوه جماعة من العلماء بهذا السند العالى الذى هو اعلى سند فى الدنيا بأجمعها · وكثر افتخارهم بالانتماء اليه والتعلق باذياله · وذلك مثل المرغتى واليوسى وصاحب فهرس الفهارس وغير هؤلاء (10) · واما الاديب العلامة المؤرخ السيد محمد الصغير بن محمد بن عبد الله اليفرنى المتوفى سنة 1140 فقد بلغ من اعتنائه بصاحب الترجمة ان افتتح به كتاب صفوة من انتشر مع أن ترجمته بحسب الترتيب الزمانى لا يكون محلها الا فى اواسط القرن الحادى عشر وعلل ذلك بقوله وانما بدات به لانه جمع بين الشرف والعلم والولاية · وسماه بشريف العلماء وعالم الشرفاء · واسترسل فى هاته الترجمة التى تقطر ثناء وتزكية واكبارا وتفوح ثقة وامانة وضبطا · الى أن قال وكان صاحب الترجمة آية الله فى حفظ السير النبوية والتنقيب على اخبار الصحابة · واحوال السلف الصالح ، يوشح مجالسه بذلك · فكان لمجلسه بذلك حلاوة عند الخاص والعام · وله اعتناء بتفسير القرآن ..

---

(5) قد اختفى اسم تاغيا من هاته الناحية فى هذا العصر واللفظ علم بربرى يراد به المضيق او ما يسمى ببلاد الخنق بالقاف المعقودة · وقد كان لابن طاهر اتصال متين بهاته المقاطعة التى تشرف على بلاد مدغرة · كما يستفاد من الاحداث التاريخية والاساطير الشعبية ·

(6) هو الحافظ مسند الدنيا شهاب الدين احمد بن ابى طالب بن نعمة الصالحى الدمشقى الحجارى المعروف بابن شحنة قد عمر طويلا كما يقول السخاوى لانه سمع صحيح البخارى عن ابن الزبير سنة 630 هـ واسمعه هو كذلك فى سنة 730 وحدث يوم موته وله مائة وبضع سنين توفى سنة 733 .. الضوء اللامع ومرآة الجنان ·

(7) هو مسند الدنيا ابو الوقت عبد الاول بن عيسى بن شعيب السجزى الزاهد كان مكثرا فى الحديث عالى الاسناد طالت مدته حتى الحق الاصاغر بالاكابر سمع صحيح البخارى من الشيخ جمال الاسلام عبد الرحمن بن محمد بن مظفر الداودى سنة 465 وقد كان الداودى سمعه من الشيخ محمد بن عبد الله بن احمد بن حموية السرخسى سنة 381 وقد كان السرخسى سمعه من الشيخ محمد بن يوسف ابن مطر الفريرى سنة 316 وقد كان الفربرى سمعه من مؤلفه مرتين سنتى 248 — 252 وكانت وفاة ابى الوقت 553 وصلى عليه الشيخ عبد القادر الجيلى « وفيات الاعيان ومرآة الجنان » ·

(8) اسمه محمد بن يوسف بن صالح بن بشر الفربرى راوية البخارى وآخر من روى عنه الصحيح رحل اليه الناس وسمعوه منه · ولادته 231 ووفاته 320 ·

(9) فتح الملك الناصر فى اجازات بنى ناصر لمحمد بن موسى بن محمد بن ناصر مخطوط خاص اشار اليه صاحب فهرس الفهارس ج 1 ص 418 ·

(10) المصدر السابق ج 1 ص 419 ·

ويعتنى بمناسبة السور والآيات · يقطع جل اوقاته فى ذلك (11) ·

وقد اعتمد كثير من المؤرخين والنسابين على صاحب الترجمة فى النقل والرواية · وذكروه فى كتبهم مقرونا بما يفيد الحفظ والضبط والاتقان وسائر اوصاف التزكية · وذلك مثل ابى حامد العربى الفاسى (12) فى مرآة المحاسن حيث قال وممن ادركناه .. واستفدنا منه وكانت بيننا وبينه الفة اكيدة الامام العلامة الاستاذ المتبحر ابو محمد عبد الله بن على طاهر بن الحسن بن يوسف بن على الشريف المذكور (13) ·

وورد ذكره كذلك عند الشيخ النسابة السيد عبد السلام بن الطيب القادرى الذى اعتمده فى مواضع من كتابه القيم الدر السنى حيث وصفه بالامام الحافظ (14) وورد ذكره كذلك فى خاتمة ابتهاج القلوب للشيخ عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى 1040 — 1096 هذا الكتاب العجيب الذى قل ان يوجد مصحوبا بهاته الخاتمة التى تآمر الحاقدون على بترها واتلافها اينما وجدت وقيل ان اخاه محمد هو الذى أمر بذلك خوفا عليه من الفتنة لانه سلك فيها مسلكا غريبا فى مراتب الاشراف ·

اما آخر من تصدى لجمع ترجمة ابن طاهر واستقصاء جوانبها واستيعاب شيوخه وتلامذته وعلومه ومؤلفاته واوصافه واخلاقه فهو العلامة الخبير والناقد البصير الشيخ محمد بن الطيب ابن عبد السلام القادرى فى كتاب نشر المثانى بنسختيه الكبرى والصغرى · فقد تصدى لتلك الشبهة الزائفة التى الصقها المغرضون بصاحب الترجمة ودحضها بالنصوص النقلية والحجج العقلية التى لا تترك مجالا للشك فى تزكيته عند كل منصف طهر الله قلبه من الامراض النفسانية فقال فى ذلك : وكان صاحب الترجمة اماما فى العلم والعمل · والدين واتباع السنة · ومن العلماء الراسخين · والائمة المحققين ، آية فى الحفظ والصدق ، والامانة والضبط ، والاتقان والتحقيق، والزهد والورع ، والاجتهاد فى العبادات ولا التفات لما يتشدق به اهل الاغراض · الفاقدون للاعراض · فقد حكوا عن محمد البيجرى المكناسى ان بعض من ينتسب للعلم كان يقول حفاظ المغرب الخ · قال المسناوى وانا اقول اعوذ بالله من ذلك ·

قال مقيده واستغفر الله من كتبه وانما كتبته للتشنيع على قائله فكيف يسلب معنى الثقة عن هاذين الامامين .. يعنى المقرى وابن طاهر واسترسل فى ذكر محاسنهما الى ان قال وقد عبر المحققون عن كل منهما بالشيخ المتبحر وشيخ الاسلام الى غير ذلك من الالفاظ الدالة على مراتب التوثيق وانتهى الى القول بأن هذا الكلام مكذوب كذبه محمد البيجرى المكناسى على من نسبه اليه وهو سيدى محمد بن ابى بكر الدلائى (967 — 1046) واستدل على ذلك بأنه وقف على كتابة الدلائى اليهما المتضمنة للتبجيل والتعظيم (15) وزاد قائلا على ان البيجرى مجهول لا يعرف له ذكر مع اهل العلم · ولم نعثر على من ذكره او سماه الا

---

(11) صفوة من انتشر ص 3 ·
(12) ترجمة فى الصفوة ص 71 وفى النشر ج 1 ص 180 ط · فاس ·
(13) مرآة المحاسن ص 136 ·
(14) الدر السنى ص 52 ·
(15) يؤيد ما قاله القادرى هنا تلك الرسالة التى أشار لها صاحب البدور الضاوية والتى ارسلها بن ابى بكر الدلائى الى المقرى وهو ببلاد المشرق يستفتيه فيها فى مسائل مختلفة فاجابه المقرى على الفور برسالة اخرى سماها اعمال الذهن والفكر فى المسائل المتنوعة الاجناس الواردة من الشيخ سيدى محمد بن ابى بكر بركة الزمان وبقية الناس · الزاوية الدلائية ص 109 ·

فى هذه المسالة فقط · ولا ذكر له لا فى تقييد ولا فى فهرسة ولا نقل ولا مؤلف مع مطالعتنا .. والكلام للقادرى لكثير من ذلك كفهرسة سيدى عبد القادر الفاسى وولديه ابى زيد وسيدى محمد · والشيخ اليوسى ولا ذكر له فى المرآة ولا فى المتع ولا فى الروضة ولا فى ازاهير البستان ولا فى الابتهاج ولا فى المقصد ولا فى الالماع ولا فى تحفة الاكابر · ولا فى الكثير من الكنانيش والمفيدات · فهذه هى الكتب التى تضمنت التعريف بطبقة الشيخ الدلائى ومن بعده لم نعثر فيها على من ذكر البيجرى سوى من نسب له هذه المقالة المكذوبة قطعا · فلا شك انه من المجهولين جهالة يرد بها الخبر عند اهل الاصطلاح النقلى .. (16) الى آخر هذا الدفاع المجيد والممتع الذى ابان فيه هذا العلامة عن مقدرته العلمية وخبرته الفنية واطلاعه الواسع وطول باعه واخلاصه الطاهر ·

لكن الجماعة التى جاءت بعد القادرى ابت الا أن تضفى على المسالة طابع الغيرة والمنافسة وتجتهد فى أن تجعلها حقا اكثر من الحقيقة وتصبغها بصبغة الوقار والهيبة وذلك بتاكيد اضافتها الى الشيخ محمد بن ابى بكر الدلائى وهو من هو فى نظرهم فانبرى فى طليعة القوم ابو الربيع سليمان الحوات المتوفى بعد 1233 هـ لتخطئة استاذه القادرى المذكور فرد عليه ردا قوى اللهجة · خاليا من اللياقة · ولم يكتف بكتابة ذلك على النسخة التى يملكها من نشر المثانى · بل سجل ذلك ايضا فى بدوره الضاوية !!! حينما ترجم للدلائى المذكور الذى يحلو له أن يشبهه بيحيى بن معين (17) · فى كونه كان يعدل ويجرح فى اهل زمانه على التعيين كيف ما كانت مراتبهم · واكد بصفة قطعية أن التقسيم هو للشيخ لا لغيره اعتمادا على ما رواه بنفسه عن طريق المسناوى شيخ والده واحد حفدة الشيخ عن المهدى الفاسى · عن البيجرى المكناسى · من ان الشيخ محمد بن ابى بكر كان يقول حفاظ المغرب فى وقتنا ثلاثة الخ ثم قال اذا عرفت هذا فكل ما قاله شيخنا العلامة محمد بن الطيب القادرى فى رد هذا التقسيم مشنعا على قائله بالتشنيع العظيم فهو خارج عن قصد قائله السابق وهو شيخ الاسلام محمد بن ابى بكر الدلائى واضاف الى ذلك قوله وانما اخفى اسمه ليلا يتوجه اليه فى حقه الملام .. الى ان قال وما نقله عن المسناوى من كونه تعوذ بالله عند سماع المقالة يكاد يكون فى حكم الاستحالة · كيف وقد نقلتها يقول الحوات — من خطه مسندة برواية هى مسندة عنده · ولا تعوذ فيها من شيء ولا تعرض لها برد (18) ·

وهكذا يتوجه الحوات الى استاذه بهاته القوارص واللذعات التى ان دلت على شيء فانما تدل على انها تهمة خطيرة وقذف شنيع موجه الى من ظل يحسن اليه · ارضاء لاهل الزاوية احياء كانوا او امواتا · فالسابقون منهم واللاحقون فى بدوره الضاوية — كلهم علماء ثقاة صلحاء هداة مبراون من الاغراض والشهوات ومن الاخطاء والنزعات التى يقع فيها ابناء البشر عن قصد او عن غير قصد ·

اما نحن فسوف لا نقف من هذا النقل الذى « اقتنصه » الحوات موقف الشك او موقف اليقين فالمسناوى يمكن أن يكون عند سماع التقسيم فى

---

(16) من نشر المثانى مخطوط

(17) هو ابو زكرياء يحيى بن معين المرى البغدادى الحافظ صاحب الجرح والتعديل اخذ عن كبار الائمة كالبخارى ومسلم وابى داود وكانت بينه وبين ابن حنبل صحبة اكيدة ومنافرة فى بعض الاحيان وهو القائل فيه كل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث وقال فيه مرة اخرى اكره الكتابة عمن اجاب فى المحنة كيحيى والتمار وامثالهما 158 — 233 ·

(18) فهرس الفهارس ج 1 ص 296 وما بعدها ·

وضعية تقتضى التعوذ فتعوذ كما يمكن أن يكون مرة اخرى فى وضعية تقتضى تسجيل ذلك فسجله بارتياح · ولكى لا نذهب بعيدا عن رواية الحوات نرى أن مسالة الحفاظ الثلاثة ولدت فى الظلام ودرجت فى مهد الحذر والاستحياء وعاشت فى الخفاء مدة ليست بالقصيرة قبل أن تتسلل صدفة الى كتب التاريخ فقد تناجى بها الشيخ الدلائى مع محمد البيجرى المكناسى · واسرها هذا بدوره فى اذن المهدى الفاسى · وادلى بها هذا الى المسناوى الذى قيدها بخطه · حسب رواية الحوات او الذى تعوذ منها حسب رواية القادرى · وعلى كل حال فهذا النقل الشفوى الطويل الذى حملت على متنه يعرضها بطبيعة الحال الى الاصلاح والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل وسائر انواع « الرتوش » شأنها فى ذلك شأن الامور التى تنقل بطريق الرواية الشفوية ·

واخيرا جاء صاحب فهرس الفهارس (19) وعزف نغمة ثقيلة تنسجم مع لحن الحوات اكد فيها ان هذا الاعتراض الحواتى نقله عنه جماعة من اعلام عصره ومن بعده واقروه · ثم ذكر اسماءهم وادرج فى طليعة قائمتهم أبا القاسم الزيانى ولقبه بمؤرخ الدولة العلوية لحاجة فى نفس يعقوب · ونحن اذا تخطينا النظر فى الاعتبارات الخاصة التى دفعته الى هذا النقل نجده انما يتعاطف مع من سبقه الى نقل كلام الحوات فقط · وتلقيب صاحب فهرس الفهارس للزيانى بمؤرخ الدولة فى موضوع كهذا يحمل معنى غير واضح ، تنقصه لهجة الامانة· اضف الى ذلك كله أن نقل الزيانى او غيره للاعتراض الحواتى لا يستلزم صحته · ولا يزيد فى وزنه مثقال ذرة من خردل ما دام غير وجيه فى اصله ·

وبعد الزيانى جاء ذكر شخصية اخرى نقلت اعتراض الحوات وهذه الشخصية هى العلامة احمد بن عبد السلام بنانى الذى يمكن أن يكون هو الذى اثار انتباه الزيانى الى هذا الاعتراض حسبما هو مسطر فى الترجمانة الكبرى (20) وذلك باطلاعه على كتابه المسمى تحلية الآذان والمسامع بنصرة الشيخ بن زكرى الجامع هذا الكتاب وضع اصلا وبالذات للرد على هيئة معينة فى مدينة فاس كان يتزعمها ويشد ازرها بعض قادة الفكر من بين القادريين والفاسيين واشياعهم ممن كانوا يهاجمون طائفة اخرى تسمى بالبلديين او المهاجرين ومن بين رجالات الهيئة الاولى صاحب النشر الذى اعترض عليه الحوات والذى عالج ترجمة الشيخ ابن زكرى فى نشره بكيفية تنم عن التحقير للطائفة الثانية والغض من قيمتها لهذا كله رحب الشيخ بنانى بالاعتراض الحواتى ليعزز به دفاعه (21) ·

وفى النهاية بذل صاحب فهرس الفهارس مجهودا جبارا لكى يجعل من محمد البيجرى المكناسى الذى وضع هذا التقسيم على راى القادرى او الذى رواه حسب راى الحوات — شخصية لامعة غير خافتة معروفة غير مجهولة · فنوه بأسرته وبما فيها من علماء وادباء وقضاة وعدول بيد أن هذه المجهودات المبذولة لم تزد صاحبه الا جهالة وغموضا ، علما بأن التعريف بالعائلة هو غير التعريف بأحد افرادها ·

اما راينا فى مسالة الحفاظ الثلاثة التى شغل الناس بها نفسهم مدة من الزمان فان الواضع لها لا يهمنا بقدر ما تهمنا قيمة كلامه فى سوق النقد والانتقاد · وذلك لا يتأتى الا بدراسة تفصيلية لمسالة التعديل والتجريح ومعرفة القواعد التى قعدها ارباب هذه الصناعة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة ·

---

(19) فهرس الفهارس ج 1 ص 297 الى ص 300 ·
(20) الترجمانة الكبرى ص 357 ·
(21) نشر المثانى ج 2 ص 220 الى 235 ط · فاس ·

تقول تقاريرهم المقتبسة من كتبهم — وذلك مثل جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر النمرى القرطبى من اهل القرن السادس الهجرى (22) وطبقات الشافعية الكبرى للتاج بن التقى السبكى من اهل القرن الثامن (23) ان من ثبتت امانته ، وتحققت عدالته ، ورسخت معارفه ، وظهر فضله، وسما قدره ، وكثر مادحوه ، وقل ذاموه ، وندر جارحوه ، وكانت هناك قرينة تدل على سبب الجرح الذى رمى به · من تعصب مذهبى · او عنصرية عرقية او منافسة دنياوية ، او ما يماثل ذلك · فان الجرح لا يؤثر فيه اطلاقا · فلا يعبأ فيه بطعن طاعن ولا بلمز لامز ولا بقدح قادح ولا بقول قائل لا برهان له · والا لو فتح هذا الباب على مصراعيه لكل من هب ودب لكى يقول ما شاء فيمن شاء لما سلم احد من الائمة الكبار فضلا عن غيرهم ذلك انه ما من امام الا وقد طعن فيه طاعنون وهلك فيه هالكون وقد عقد ابن عبد البر بابا لحكم قول العلماء بعضهم فى بعض افتتحه بحديث الزبير رضى الله عنه دب اليكم داء الامم قبلكم الحسد والبغضاء ثم شرع فى ذكر جماعة من النظراء وقول بعضهم فى بعض وعدم الالتفات الى شىء من ذلك حتى انتهى الى كلام يحيى بن معين فى محمد بن ادريس الشافعى الذى قال فيه انه ليس بثقة (24) قال ابن عبد البر انه مما عيب به على ابن معين · وعلق عليه بقول احمد بن حنبل فيه : من اين يعرف ابن معين الشافعى · وهو لا يعرف الشافعى · ولا يعرف ما يقوله الشافعى · ومن جهل شيئا عاداه · وقال التاج بن التقى السبكى قد كان فى بكاء ابن معين على اجابته المامون الى القول بخلق القرآن وتحسره على ما فرط منه · ما ينبغى ان يكون شاغلا له عن التعرض الى الامام الشافعى امام الائمة وابن عم المصطفى صلى الله عليه وسلم (25) ثم ذكر ابن عبد البر جماعة من الذين تكلموا فى مالك ابن انس وعابوا اشياء من مذهبه · وقد براه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها · واشار الى ان الناس تكلموا فى الامام ابى حنيفة النعمان وغيره وختم ذلك قائلا فمن اراد قبول قول العلماء الثقاة بعضهم فى بعض فليقبل قول الصحابة بعضهم فى بعض فان فعل ذلك فقد ضل ضلالا بعيدا وخسر خسرانا مبينا · وان لم يفعل فليقف عند ما شرطناه فى ان لا يقبل فى صحيح العدالة المعلوم بالعلم عنايته قول قائل لا برهان له به ·

ثم ان الجرح والتعديل هو مثل النقد البناء شىء ضرورى لا محيد عنه بيد انه لا بد فيه من ان يكون خاضعا لمقاييس ومعايير تضبط سيره وتحدد اتجاهه من جملتها ان يكون المجرح برئا من البغضاء والشحناء والتعصب المذهبى · وان يرتفع فوق مستوى الخلافات بين المذاهب الاعتقادية والميول العاطفية والطائفية · وان يكون عارفا بمدلولات

---

(22) ج 2 — من صحيفة 184 الى 200 ·
(23) ج 1 — من صحيفة 187 الى 198 ·
(24) نفس المصدر ج 5 ص 220 ·
(25) نفس المصدر ج 1 ص 189 ·

الالفاظ اللغوية والمعانى العرفية ملاحظا تغيرها بحسب الزمان والمكان وان يكون عارفا فى مثل هاته الحالة بالاحكام الشرعية · فرب جاهل او متزمت ظن الحلال حراما فجرح به · ومن هنا كان لا بد من البيان والايضاح والتفسير واقامة الدليل والبرهان فى تجريح من ثبتت عدالته (26) ·

ومجمل القول فى مسألة تقسيم الحفاظ الثلاثة انها لم تعرف معرفة اكيدة وواضحة فى عصر صاحب الترجمة فلم يرد لها ذكر عند تلاميذه او تلاميذ تلاميذه ومن عاصرهم من المؤرخين المعتنين بتسجيل الاحداث فى وقتها الى ان جاء محمد البيجرى المكناسى الذى لا تعرف له ترجمة صحيحة فادعى انه سمعها من الشيخ الدلائى ومنه اتخذت طريقها الى المهدى الفاسى ومن هذا الى الشيخ المسناوى الذى قال القادرى انه تعوذ منها · او الذى قال الحوات انه نقلها من خطه · وسواء كان القائل لها هو البيجرى او الدلائى فلا تكون مقبولة ولا ذات قيمة جديرة بالوقوف عندها الا اذا توفرت على العناصر التى ذكرناها آنفا · قال ابن عبد البر والدليل على انه لا يقبل فيمن اتخذه جمهور من جماهير المسلمين اماما فى الدين قول احد من الطاعنين أن السلف رضوان الله عليهم قد سبق من بعضهم فى بعض كلام كثير فى حال الغضب ومنه ما حمل على الحسد (27) وقال الحافظ الذهبى ليس كل كلام وقع فى حافظ كبير لوثة فيه (28) ورحم الله الفقهاء الذين قالوا اذا بلغ الماء قلتين فانه لا يحمل خبثا ·

للبحث صلة

---

(26) نفس المصدر ج 1 ص 194 ·

(27) جامع بيان العلم وفضله ج 2 ص 196 ·

(28) ميزان الاعتدال ج 3 ص 304 ·

بَقِيّ بن مخلد مُجتهدُ الأندلس المطلق وَصاحبُ المسند المصنف

بقلم **الاستاذ عبد العزيز بن محمد بن الصديق**

من مفاخر الاندلس ، وكبار ائمتها ، ودرة تيجان علمائها الامام الحافظ المجتهد ابو عبد الرحمن بقى — بوزن على — بن مخلد بن يزيد القرطبى الاندلسى احد الاعلام ، بل علم الاعلام ، الذى تشرفت به الاندلس وفاقت غيرها به وتطاولت بوجوده عمن يحاول اللحوق بفضلها والمساواة بها · ما تقدم مثله فى بلاد المغرب ، ولا تاخر ·

ولد سنة واحدة ومائتين ، ومات رحمه الله تعالى ليلة الثلاثاء لليلتين بقيتا من جمادى الاخيرة سنة ست وسبعين ومائتين ·

رحل الى المشرق وجال فى البلاد شرقا وغربا · فاخذ عن اكابر الائمة والشيوخ كما قال ابو بكر بن العربى فى (العواصم والقواصم) 2 / 206 / المطبعة الجزائرية الاسلامية : رحل فلقى علماء الامة · وسادة العلم · ورفقاء الملة ، كاحمد بن حنبل ، واكرم فارتبط ، وظفر فاغتبط ، وحلى بعلم عظيم ودين قويم ·

وقبل رحلته الى المشرق اخذ عن اهل بلده اولا كما هى العادة عند اهل الحديث يبدون بالاخذ عن شيوخ بلدهم ثم بعد ذلك يشدون الرحلة الى الاخذ عن غيرهم ، كما هو مقرر فى علوم الحديث.

فاخذ بالاندلس عن يحيى بن يحيى الليثى راوى الموطأ عن الامام مالك ومحمد بن عيسى بن عبد الواحد المعافرى الاعشى احد ائمة الفقه والسنة بالاندلس روى عن اصحاب مالك ، ولكن كان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار ثم رحل الى افريقية فسمع من كبار ائمتها كسحنون بن سعيد صاحب المدونة وعون بن يوسف ، وجماعة ·

وبعد الطواف على شيوخ افريقية انتقل الى المشرق فجال بأقطاره ومدنه وقراه للتحمل والسماع · فاخذ عن كبار ائمة الحديث ورجاله ، وشيوخ السنة وفى مقدمتهم امام اهل السنة احمد بن حنبل · وكان ذا خاصة منه كما يقول ابن حزم فى رسالته (فضل الاندلس) ·

وكان وصوله اليه فى الوقت الذى امتحن فيه بمسالة خلق القرآن · وصدرت الاوامر بمنع الاتصال به · والاخذ عنه · فاغتم لذلك بقى بن مخلد غما شديدا ومع ذلك لم تضع امنيته · ولم يذهب تعب رحلته · فعمل حيلة لطيفة فى التوصل اليه ، والرواية عنه رغم المراقبة التى كانت حول منزل الامام احمد رضى الله تعالى عنه ·

كما حكى ذلك عنه العليمى فى ترجمته من كتابه (المنهج الاحمد فى تراجم الامام احمد) 1 / 177 / ولا بأس بايراد هذه القصة هنا فانها مثال حى لما كان يتحمله سلفنا الصالح ولا سيما رجال الحديث منهم من التعب والنصب فى سبيل العلم قال العليمى حكى عنه انه قال لما قربت من بغداد اتصل بى خبر المحنة التى دارت على احمد بن حنبل وانه ممنوع من الاجتماع اليه والسماع منه · فاغتممت لذلك غما شديدا · فاحتللت الموضع فلم اعرج على

شيء بعد انزالي متاعي في بيت اكتريته في بعض الفنادق ان اتيت المسجد الجامع الكبير · وانا اريد ان اجلس الى الخلق واسمع ما يتذاكرونه ، فدفعت الى حلقة نبيلة فاذا رجل يكشف عن الرجال فيضعف ويقوى فقلت من هذا لمن كان قربى فقال هذا يحيى بن معين فرايت فرجة قد انفرجت قربه فقمت اليه فقلت له ابا زكريا رحمك الله رجل غريب نائى الدار اردت السؤال فلا تستخفني فقال لى قل · فسألته عن بعض من لقيت من اهل الحديث فبعضا زكى ، وبعضا جرح فقلت وانا واقف على قدمى اكشفك عن رجل واحد احمد بن حنبل · فنظر الى يحيى بن معين كالمتعجب وقال لى ومثلنا نحن يكشف عن احمد بن حنبل ان ذاك امام المسلمين وخيرهم وفاضلهم ، ثم خرجت استدل على منزل احمد بن حنبل فدللت عليه ، فقرعت بابه فخرج الى وفتح الباب فنظر الى رجل لم يعرفه فقلت يا ابا عبد الله رجل غريب الدار هذا اول دخولى هذا البلد · وانا طالب حديث ومقيد سنة ولم تكن رحلتى الا اليك فقال لى ادخل الاسطوان ولا تقع عليك عين فقال لى واين موضعك قلت المغرب الاقصى · فقال لى افريقية فقلت ابعد من ذلك · اجوز من بلدى البحر الى افريقية الاندلس فقال لى ان موضعك لبعيد ، وما كان شيء احب الى من ان احسن عون مثلك على مطلبه ، غير انى فى حينى هذا ممتحن بما لعله قد بلغك فقلت له بل قد بلغنى وانا قريب من بلدك مقبل نحوك ، فقلت له ابا عبد الله هذا اول دخولى وانا مجهول العين عندكم فان اذنت لى ان آتى فى كل يوم فى زى السؤال فاقول عند باب الدار ما يقولون فتخرج الى هذا الموضع فلو لم تحدثنى فى كل يوم الا بحديث واحد لكان فيه كفاية فقال لى نعم ، على شرط ان لا تظهر فى الخلق ولا عند اصحاب الحديث فقلت شرطك ، فكنت آخذ عودا بيدى والف راسى بخرقة واجعل كاغدى ودواتى فى كمى ، ثم آتى بابه فاصيح الاجر رحمكم الله — والسؤال هنالك كذلك — فيخرج الى ويغلق باب الدار ويحدثنى بالحديثين ، والثلاثة ، والاكثر فالتزمت ذلك حتى مات الممتحن له ، وولى بعده من كان على مذهب السنة فظهر احمد بن حنبل وسما ذكره ، وعظم فى عيون الناس ، وعلت امامته وكانت تضرب اليه آباط الابل ، فكان يعرف لى حق صُحبتى ، فكنت اذا اتيت حلقته فسح لى وادنانى من نفسه ، ويقول لاصحاب الحديث هذا يقع عليه اسم طالب العلم ثم يقص عليهم قصتى معه ، فكان يناولنى الحديث مناولة ويقراه على واقراه عليه فاعتللت علة اشفيت منها فقدنى من مجلسه فسأل عنى فأعلم بعلتى فقام من فوره مقبلا الى عائدا لى بمن معه وانا مضطجع فى البيت الذى كنت اكتريت ، ولبدى تحتى وكسائى على ، وكتبى عند راسى ، فسمعت الفندق قد ارتج بأهله وانا اسمعهم يقولون هو ذاك ابصروه هذا امام المسلمين مقبلا فبدر الى صاحب الفندق مسرعا فقال لى ابا عبد الرحمن هذا ابو عبد الله احمد بن حنبل امام المسلمين مقبلا اليك عائدا لك فدخل فجلس عند راسى وقد احتشى البيت من اصحابه فلم يسعهم حتى صارت فرقة منهم فى الدار وقوفا واقلامهم بأيديهم · فما زادنى على هذه الكلمات فقال لى يا ابا عبد الرحمن ابشر بثواب الله ايام الصحة لا سقم فيها ، وايام السقم لا صحة فيها · اعلاك الله الى العافية ومسح عنك بيمينه الشافية فرايت الاقلام تكتب لفظه ·

ثم خرج عنى فاتانى اهل الفندق يلطفون بى · ويخدموننى ديانة وحسبة فواحد ياتى بفراش، وآخر بلحاف وبأطايب من الاغذية وكانوا فى تمريضى اكثر من تمريض اهلى لو كنت بين اظهرهم لعيادة الرجل الصالح ، هذا ما نقله العليمى عن بقى بن مخلد فيما احتال به فى السماع من الامام احمد بن حنبل حرصا على التحمل والرواية عن امام تبرز فى ذلك العصر فى السنة والدفاع عنها والامتحان من اجل نصرتها ، ومن كان هكذا فمن الرغائب بل المزايا العظيمة لطالب حديث ومقيد سنة كبقى ابن مخلد ، ان يكون له اخذ عنه وسماع منه ·

والى العدد القادم ان شاء الله تعالى ·

التسامح الديني في المغرب المسلم

بقلم **الاستاذ الحسن السائح**

المغرب .. عربى اسلامى ، عربى بالمفهوم اللغوى والقيم الاخلاقية ، واسلامى بمفهوم العقيدة الصافية السامية التى لا تكره غير المسلمين على اعتناق الاسلام ، اذ لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى .. ولهذا فقد اعتاد المغاربة ان يسمعوا كل يوم عن الذين يدخلون فى دين الله افواجا عن اقتناع وايمان .. والمغربى بقدر تمسكه بدينه الاسلامى ، واخلاصه لتعاليمه ، وتشدده فى الاخذ بالطريق الصعب عقيدة وسلوكا ومنهاجا هو مسلم متسامح يحترم المتدين من المسيحيين واليهود على السواء ..

فالتسامح ليس فى سلوك المسلم الدينى ، ولكن التسامح مع غير المسلمين بالحفاظ على شعائرهم واحترامها ، ولا ادل على ذلك من ان المغرب اقوى امة تمسكا بالدين بل لم يتأرجح بين المذاهب الاسلامية فقد استقر على المذهب المالكى السلفى رغم ظهور بعض المذاهب الاخرى فى مراحل تاريخية فقط ، كما انه استقر على العقيدة الاشعرية السنية المرنة على التصوف السلوكى الاسلامى على طريقة الجنيد العملية التربوية ، وعلى قراءة ورش التى يؤديها فى حماس مثوثب وفى قراءة جماعية استجابة لطبيعة التكتل والتجمع .

.. ولم يضق الاسلام فى المغرب بالمسيحيين ولا باليهود بل ظل هؤلاء يعيشون فى كنف الدولة المسلمة ضامنة لهم شعائرهم ، ومحافظة على شخصيتهم ..

واذا رجعنا الى التاريخ الدينى فى المغرب ، فان المسيحية ظهرت ببلادنا منذ عهودها الاولى ، حتى اذا جاء الاسلام ودخل المغاربة فيه افواجا لم يعلن حربا تعسفية ضد الدين المسيحى ولا ضد الدين اليهودى ، بل عرفت الكنيسة الازدهار فى العهود الاسلامية كما كان المغرب ملجأ لليهودية المضطهدة فى اوربا ..

.. لقد ظهرت المسيحية أول الامر فى (قرطاج) معتمدة على الدراسات الفلسفية (للافلاطونية الحديثة) وكانت قرطاج وبلاد افريقيا مستعدة لقبولها لطبيعة التفكير البونيقى الدينى الذى يطبع الشخصية المغربية ..

ولا شك أن القرطاجنيين عرفوا المسيحية منذ عهد المسيح ، فالمضطهدون المسيحيون كانوا يلجأون عادة الى العواصم التى تخضع للنفوذ الرومانى سواء باوامر حكومة روما ، أو بطبيعة المجال الجغرافى ، كما أن الصلات الاقتصادية بين قرطاج وبين الشام تلزمنا الاعتراف بالاتصال الثقافى المستمر بين آسيا وافريقيا ، ذلك الاتصال الذى تقام فيه الثقافة على الفكر الدينى على ان تاريخ المسيحية يذكر بوضوح أن أول مجمع افريقى كان أوائل القرن الثالث واشتمل على سبعين اسقفا من البروقنصلية ونوميديا تحت حكم (آتريبنوس) ولا شك أن سبعين اسقفا لا يمكن

ان يظهروا فجاة ، وانما هم نتيجة سنين واعوام من التكوين المسيحى فى افريقيا ·

ويدل على ان الكنيسة القرطاجنية متاثرة بكنيسة الشرق وتقاليدها الشرقية ، استعمالها اليونانية اول الامر ولم تستعمل كنيسة قرطاج اللغة اللاتينية الا مؤخرا ، حيث ظهرت بافريقيا منذ 180 ميلادية نسخ مترجمة من الانجيل .. كما عرفت بافريقيا رسائل بولس الرسول احد حواريى المسيحية .. وازدهرت المسيحية فى افريقيا كحركة تحريرية ضد روما · وظهر اعظم مفكر مسيحى افريقى (ترتوليانوس) الذى تجاوز الرهبنة الى الاهتمام بالفلسفة الدينية والمزاوجة بين العقل والدين ، ومحاربته لليهود باعتبارهم اعداء المسيحية الذين يؤلبون عليها السلطة والشعب · كما ان القديس (قربانوس Agrippinos) من اعظم مفكرى قرطاج الديانيين · وقد وقفت روما بالمرصاد للتسرب المسيحى لافريقيا ولذلك ابتليت المسيحية بافريقيا بالاضطهادات المتوالية ..

.. وفى عهد (دسيوس 250) كان الاضطهاد مدعاة لخلق شهداء كانوا سببا فى تقوية الديانة المسيحية فى افريقيا (المستعمرة الرومانية آنذاك).

وقد وجد الافارقة فى الديانة المسيحية السماوية المسالمة مبررا لمناهضة الروح العسكرية الرومانية .. اذ ان الكنيسة كانت تخص الجندية لله لا للامبراطور .. وهى نزعة دعا اليها ترتوليانوس .. فغل ذلك من قوة الرومانيين واضعف حماس المستعمرين ، وحطم عجرفتهم وكما اصبحت الكنيسة الرومانية حليفة الزمنية وغير الحماس الدينى المسيحى وانقلبت الطقوس الكنيسية الى مظاهر وثنية ، ورث الراهب فيها منصب الكاهن · ظهرت الدوناتنوسية متحالفة مع ثورة الدواريين Sircumcellas تلك الثورة الطبقية التى وقفت فى وجه الاستعمار الرومانى ، فاعطت للمسيحية روحا جديدة شعبية تحريرية .. ورغم محاولة الامبراطور الرومانى قنسطانس توحيد كنيسية افريقيا ، وتوزيع الصدقات على الطبقة المعوزة فان (دوناتوس) رفض الصدقات وافسد خطة الامبراطور ، ومنذ سنة 347 والتحالف على اشده بين الدواريين والدوناتيزم .. ولو ان القديس اغطينوس العظيم هادن الدوناتيزم لكان اعظم مفكر افريقى بلا نزاع · ولكن انضمامه الى الكنيسة الرسمية اضاع شعبيته وجعله حليف الرومانيين ولا شك ان الدوناتيزم ارتكزت على الشعب اصالة وقد الف (برمانيانوس) تأليفا فى الدفاع عنها ، وصاغ (مزاميير Psaumès) اذكت العاطفة الدينية لدى انصاره .. ولم تتفاد ذلك الكنيسة الرسمية المعتمدة على القوة حيث جعلت من قول المسيح (ادمجهم الى الدين دمجا) مبررا لهذا التدخل ..

وقد كان فشل الكنيسة الرسمية يرجع لمبالغة اغطيوس فى الدعوة الى طاعة رجال الكنيسة واقرار الحكم الالاهى الذى اعتمد عليه البابوات فيما بعد لقوة دينية لسلطتهم المطلقة ربما ان سياسة الكنيسة اصبحت تكرس الفقر وقهر النفس فهى تشجع الضعفاء بشرط الرضى بالطبقة الاجتماعية ، وتكرس العبودية ، والرقية ، لان الضرورة الاجتماعية تفرض خدمة الارض ولم تتجاوز بناء اديرة للعلاج فكانت مؤسسات تعاونية خيرية لامتصاص غضب الثائرين ضد تعسفات الرومانيين·

وبذلك ضعفت الكنيسة فى المغرب ولم تبق لها الا تلك الصورة الرسمية والتبعية لكنيسة روما .. على ان جنسريق (الوندالى) اول من حارب المسيحية فى افريقيا فانتزع كنوز الكنائس ، فحارب المسيحية بقدر ما كان يحارب الكنيسة المتحالفة مع روما .. كما كان ولده (جنياريق) (477 — 474) اعظم محارب لها .. ورغم تصالح الاريوسية الشرقية مع الكاثوليك وتدخل زينون فى مجمع سنة 484 ، فان الكنيسة الافريقية لاقت من العناء الشديد على يد الوندالين ·

.. ثم انفذ (البزنطيون) الكنيسة الافريقية. وأرجع (بوسطينيالدس) السلطة الى روما

وبالتالى أعاد للكنيسة الرسمية هيبتها · على حساب الاريوسيين والمشركين .. ولكن مع ذلك فان الكنيسة كانت اضعف من أن تعود الى مكانتها ..

وقد انتشرت الكنائس فى افريقيا فى القرون الثلاثة الاولى من عهد قسطنطين واستمرت بعد ذلك ، ويشهد المؤرخون ان بناء الكنائس استمر الى قبل الفتح الاسلامى كما تؤكد ذلك كنيسة نواحى سبيطلة .. ولم يعمل المسلمون على تقويض الكنائس ، وانما روجوا (المذهب المقدس) وجعلوه عيد الشعب مما ازهر الاقتصاد الافريقى وبذلك اعادوا للراهب وظيفته الدينية التى استحالت الى وظيفة (الكاهن) الوثنى الذى عمل على صياغة التماثيل الذهبية للالهة ، اما فى عهد الوندالى فقد هدمت الكنائس مما اضطر معه (البزنطيون) الى بنائها من جديد فشيدت كنائس جديدة وظهر الفن الشرقى بارزا فى بناء الكنائس البيزنطية سواء فى فن الزخرفة او فى طبيعة السلوك الدينى وذلك فى الايمان بالاولياء والقديسين المدفونين بها .. كما كانت للكنيسة الافريقية الرسمية الزعامة ، واصبحت تابعة لمركز البابوية مما ساعد على ظهور الدوناتيزمية من جديد ، كحركة لمقاومة الاستعمار البيزنطى ·

ومما زاد فى هزيمة الكنيسة الرسمية ظهور القول بالارادة الواحدة Mouotheites التى نادى بها Sergius سرجيون (بقسطنطينية) اى بارادة واحدة الاهية وبشرية معا وجاء دعاة المذهب الجديد الى افريقيا بعد أن انتصر الفتح الاسلامى فى مصر .. مما أحدث انشقاقا وخلافا فى الكنيسة الافريقية ، وفى هذا الوضع المترهل للكنيسة الافريقية كان الدم الجديد يتدفق الى المغرب على يد الفاتحين المسلمين ..

والاسلام له موقف واضح من المسيحية والمسيحيين ، ومن المعروف عند علماء السيرة ان يصفوا ذلك الجدال العنيف الذى استمر فى يثرب بين النبى عليه السلام وبين اليهود والنصارى فى موضوع العقيدة التى جاء بها .. فاذا كانت قريش انكرتها فى مكة ولجأت الى العنف لاسكات صوت العقيدة ، فان اليهود وهم اصحاب كتاب والنصارى وهم اصحاب كتاب كذلك ، لجأوا الى اسلوب آخر فى معارضتها لم يكن اسلوب الحرب التى تشهر السلاح لان المسلمين اصبحوا فى المدينة ذوى منعة عديدة ، وفى مدينة تأويهم فتحسن الايواء وتدافع عنهم فتستميت فى الدفاع ، واذا كانت اليهودية منتشرة فى ضواحى المدينة تكايد الاسلام وتدس للمسلمين ، فان النصرانية لم يكن امرها ظاهرا فى مدينة يثرب وانما كانت للنصارى جماعة فى نجران التى تقع فى شمال جزيرة العرب .. ولذلك فلم يكن للنصارى جدال مستمر مع المسلمين الاوائل سواء فى المجال الفكرى او فى المجال العسكرى كما كان مع اليهود طالما نقضوا العهد ، واساءوا الجوار واستخفوا بالاسلام والمسلمين ·

والقرآن الكريم شرح العقيدة اليهودية والعقيدة المسيحية كما هما قبل ان يحرفا عن دعوتهما وعن اسلوبهما ، وعن فكرتهما الاولى ، اما ما يتعلق بالموسوية فقد جاءت تفاصيل عنها فى سورة البقرة ، واما ما يتعلق بالمسيحية ففى سورة آل عمران وفى سورة مريم تحليل كاف لها ايضا .. وخلاصة ما يقرره الاسلام عنها ان المسيح عيسى ابن مريم كان معجزة منذ بداية خلقه ، فلم يكن له اب كما هو الشأن فى الناس كافة ، وانما هو كلمة الله وروح منه .. وكانت معجزته الباهرة ان كلم الناس فى المهد صبيا واحيى الموتى وابرا الاكمه والابرص ، وجعل من الطين كهيئة الطير ثم نفخ فيه فكان طائرا باذن الله ، وقد جاء فى القرآن وصف لعنت اليهود ومحاربتهم العنيفة للمسيح عليه السلام فكذبوه وتعاونوا مع الرومان ليصلبوه · ولكنهم لم يصلبوه ولم يصلوا الى شىء من ذلك بل شبه لهم ورفعه الله اليه ، ويؤكد البحث التاريخى نفى الصلب لان المسيح كما يروى الذين نقلوا صلبه اخذ ليلا عند افتراق الناس عن الفصح ، وذلك

خشية العامة وارضاء لليهود الذى الحوا على السلطة بقتله ، ولعلها تظاهرت بتنفيذ رغبة اليهود، فقررت الصلب يوم الجمعة مساء دخولهم فى السبت ولم يبق على الخشبة الا ساعات معدودات ، وانزل بعد ذلك ولم يصلب ، اما ما يلاحظ فى التماثيل المسيحية من صلبه على الصليب فباطل بدليل انها تصوره بمسامير دقت فى رجله ويديه وهذا ما لم يكن معروفا فى الصلب عند الرومان ، وانما اراد الفنان المسيحى اثارة الشفقة على المسيح ، كما ان المصلوبين عادة بذلك يظلون على الصليب بينما المسيح نقل جثمانه الى كهف بدل مقبرة ، وترك فى الكهف ثم غادره وبقى به كفنه وفيه آثار دم ، واخيرا اجتمع بحواريه ليلة السبت حيث (العشاء الاخير) وكل هذه المفارقات دالة على ان الصلب غير متفق عليه ، وانه مجرد ادعاء ، وقد شك فى الصلب المؤرخون المسيحيون ، وابن حزم من علماء المسلمين ولكن المسيحيين من بعد ، حرفوا تعاليم المسيح عليه السلام فقد الهته كثير من الفرق المسيحية ، وجعلته جزءا من الخالق بأن الله ثالث ثلاثة . . والاسلام حين يدافع عن المسيح والمسيحية ويرد دعاوى اليهود فى عدم اقرار ولادته دون اب ، يستدل على ذلك بأن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، ويشتد فى الحملة على المسيحيين الذين حرفوا الكلم عن مواضعه .

لقد كان الجدال فى هذه الموضوعات عنيفا حادا فى يثرب بين المسلمين واليهود وبين المسلمين والنصارى . . ونترك موضوع الخلافات بين اليهود والمسلمين فى آخر الموضوع ، اما بين المسلمين والنصارى فان اهل السيرة يذكرون أن وفدا من نصارى نجران -وعدتهم ستون راكبا منهم بعض المسيحيين المتفقهين فى دينهم من الرهبان وقد جاء هذا الوفد الى المدينة ، ولا نعلم السبب الذى دعاهم الى المجيء الى المدينة . . فهم ليسوا اصحاب تجارة وليس لهم صلات عائلية تربطهم بسكان المدينة ، ولكن الظاهر أنهم سمعوا بالدين الجديد الذى ظهر فى مكة ويثرب وسمعوا بما يعرض للمسيحية فى تحليل ونقد . . وعلى ابلغ الفروض فربما سمعوا بهذا الخلاف الحاد بين الوثنية المكية واليهودية فى يثرب وبين الدين الجديد ، فجاءوا اما ليظهروا موقف دينهم من هذا الدين الجديد ، ولم يكن الا موقف النقد وارجاع الاشياء الى نصابها كما نقول فى هذا العصر ، واما ليزيدوا فى تصعيد هذه المعركة حتى تبلغ اشدها لتستريح النصرانية المتأخمة فى الشام وفى اليمن من غلواء الوثنية ودسائس اليهودية . . ومستقبل هذا الدين الجديد ايضا .

واتخذ الاسلام من التوراة والانجيل موقفا واضحا . أما موقفه فى التوراة فسأروى ما جاء فى كتاب (شبهات النصارى وحجج الاسلام) للعلامة رشيد رضى ، من أن حزقيال صرح بأن بنى اسرائيل عبدوا الاصنام بعد ما خرجوا من مصر ، وبذلك فند قول من زعم من اليهود والنصارى ان طلب بنى اسرائيل عبادة الاصنام لم يقل به الا القرآن . . اما الكتب التى يسمى مجموعها عند اليهود والنصارى (التوراة) فيشهد القرآن الكريم انها محرفة وهى مجموعة من الاحكام التى جاء بها موسى عليه السلام ما عدا سفر التكوين من الاسفار الخمسة المنسوبة الى موسى ، ويدل لذلك أن بها تاريخه وذكر وفاته ، كما ورد فى المقالة التاسعة حيث أورد هناك ان التوراة معناها الشريعة وهى الاسفار الخمسة ويوجد فيها من احكام تلك الشريعة مثلما يوجد فى كتب السيرة النبوية عند المسلمين من آيات القرآن واحكامها ، وليست السيرة هى القرآن والشرع الاسلامى ، وفيه ايضا (تحت عنوان حقيقة التوراة والانجيل — صفحة 3) ليس عندنا فرقان نميز به بين الاحكام الاصلية الموحى بها ، وبين ما مزج فى التألف وكأنه للسلامة ، مما وقع لليهود والنصارى حرم الشارع كتابه السنة اول الاسلام ، كما قال صلى الله عليه وسلم لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن ومن كتب

عنى شيئا غير القرآن فليمحيه ، نعم اننا نرجح بعقولنا ان الاحكام المسندة الى سيدنا موسى فى سفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدة وسفر التثنية كلها أو جلها من التوراة لانها ان لم تكن هى فأين هى ؟ ونرجح مثل ذلك فى وعظ المسيح على (الانجيل) كما فى تاريخ انجيل (متى) وغير ذلك من المواعظ كما رجح بعض العلماء فى الغرب والمشرق ان جزءا كبيرا من الانجيل دخل فى كتاب اشعيـــاء . .

وعقيدة التثليث من الدخيل فى النصرانية ، وجاء فى دائرة المعارف تحت مادة (نصر) (وقد ذهب نقدة التاريخ فى اوربا الى ان عقيدة التثليث لم يأت بها الانجيل ولم يكن الحواريون يعرفونها ، فلما جاء بولس الـذى تـوفى سنة 69 ادخـل هذه العقيدة الى الديانة النصرانية ونشرها بكتبه ورسائله) فقد ادخل غيرها مما فرق بين النصارى الى ثلاث طوائف ملكانية ويعقوبية ونسطوريـة (راجع حياة الحيوان تحت كلمة : فرس) ونقل ذلك ايضا الالوسى فى تفسيره لقد كان بولس اولا من اليهود شديدا على النصارى يحاربهم ثم تنصر فجأة وصار من كبار النصرانية ، وزاد فى كتـاب شبهات النصارى وحجج الاسلام ان الديانة التى بثها فيهم بولس لم تزدهـم الا عـداوة وبغضا واختلافا . اما فى الاصحاح السابع عشر من انجيل يوحنا ففيه التصريح بالتوحيد ولفظه ان يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الـذى أرسلته الى آخر دعاء المسيح عليه السلام .

وحقيقة الانجيل فى الاسلام هو ما اوحاه الله تعالى الى المسيح عليه السلام من المواعظ والحكم والاحكام وكان يحض به ويعلم الناس ايضا ، وما زاد على ذلك فهو من التاريخ ، وبعبـارة ككتب السيرة عند المسلمين ، ومعلوم ان الانجيل كتب بعد المسيح فى ازمنة مختلفة ، والقرآن يشهد على النصارى بانهم لم يحفظوا جميع ما وعظهم بـه المسيح عليه السلام من الوحى المسمى بالانجيل ، حيث قال ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به كما قال مثـل ذلك فى اليهـود .

ان الانجيل الحق لا يوجد بين يدينا الآن ، اما الاناجيل الاربعة الموجودة على اختلافها فليست هى الانجيل الذى تحدث عنه القرآن ، فانجيـل (متى) ليس من تصنيفه ولقد كتب أولا باللسـان العبرانى ، والنسخ الموجودة منـه انمـا هـى ترجمات ، ولا نعرف من ترجمها ، ولا يوجد سند تاريخى صحيح يؤكد ان الترجمة صحيحة . امـا انجيل (مرقس) الذى كان يهوديا وتتلمـذ على (بطرس) فانه كان ينكر الوهية المسيح ولم يذكر فى انجيله اى مدح له . اما انجيل (لوقا) فان (لوقا) هذا لم ير المسيح اصلا ، وانمـا اخـذ نصرانيته عن (بولس) اليهودى ، أما انجيل يوحنا لقد قالوا انه تصنيف طالب من طلبـة المدرسـة الاسكندريـة .

فيتبين مما ذكر ان الاناجيل المقـررة مـن الكنيسة لم تكتب قطعا فى عهد عيسى عليه السلام وان (اناجيل) أخرى كانت متداولة ، فوقع عدم اعتمادها وحرمت قراءتها لانها تتعارض مع النزعة التى كانت تدعو اليها الكنيسة ، ولان البعض منها كـانت فيـه الاشارة الواضحة والبشارة الحقيقية بسيد الخلق عليه السلام . فانجيل (برنابا) مثلا ، والذى كان يوجد بمكتبة البابا (سكتس) بروما ، وعثر عليه الاسقف (فرارينو) مصادفة اواخـر القرن السادس عشر ، يختلف أساسا مع الاناجيل الاربعة الاخرى . ولقد قراه وتمعنه الاسقف المذكور فآمن بما جاء فيه ، واعلن اعتناقه للاسلام لانـه وجد اسم الرسول محمد مذكورا فيه ، ومبشرا به.

و (برنابا) هذا حوارى من حوارى المسيح عليه السلام ، وداعية من دعاة المسيحية ، اما الاربعة الآخرون فليسوا من الحواريين .

وانجيل (برنابا) لا يعتبر المسيح ابن الله، ولا يعتبره الها . ويؤكد ان الذبيح الذى تقدم به ابراهيم عليه السلام هو (اسماعيل) وليس باسحاق ، واكثر من ذلك فانه يبشر بظهور سيدنا محمد ويقول : (ان الآيات التى يظهرها الله على يده ، تظهر انى اتكلم بما يريد الله ، ولست احسب نفسى نظير للذى تقولون عنه ، لانى لست اهلا لان احل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه (مسيحا) الذى خلق قبلى وسياتى بعدى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية . والامر الرابع الذى يؤكد الانجيل (برنابا) ان المسيح عليه السلام لم يصلب ولكن شبه لهم طبق ما ورد فى القرآن الكريم .

واخيرا ان اربعة اناجيل معترف بها من الكنائس ، تنسب لاربعة اشخاص : 1 ــ (متى) 2 ــ (ومرقس) ، 3 ــ (ولوقا) و (يوحنا) وهاته الاناجيل تتفق فى مواضيع وتختلف فى اخرى ، وهى جميعها من وضع اصحابها ، ويل ديورانت صاحب كتاب قصة الحضارة فى الجزء 11 ص 207 و 208 ترجمة السيد محمد بدران ما يلى : (كانت الاناجيل كثيرة ومنتشرة فى القرنين الاول والثانى ، وكانت مكتوبة باللغة اليونانية الدارجة ، والنسخ الاصلية كما يبدو بين عام 60 و 120 وتعرضت بعد ذلك مدى قرنين لاخطاء فى النقل ولعلها تعرضت ايضا لتحريف متعمد ، والكتاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الاول الميلادى لا ينقلون شيئا عن العهد الجديد (الانجيل) بل كل ما ينقلونهُ مأخوذ من العهد القديم (التوراة) ولسنا نجد اشارة لانجيل مسيحى قبل عام 150 م الا فى كتاب (بابياس) الذى كتب عام 135 والذى جاء فيه أن مرقس الف انجيله من ذكريات نقلها اليه بطرس واعاد متى كتابة الكلمات بالعبرية ، ثم يقول : يعتقد نيوس أن انجيل (مرقس) كتب فى الاصل باللغة العبرية (الارامية) ولكنه لم يصل الينا الا باللغة اليونانية ، ثم يقول : والنقاد لا يميلون الى القول بأن انجيل (متى) من تأليف اتباعه وليس من اقوال (العشار) نفسه .

ويعترف (جيروم) بأن انجيل (متى) قد فقد ، وهذا الموجود ليس الا ترجمة له .

اما (لوقا) فلقد كان طبيبا من اهل انطاكية، ولم ير المسيح اصلا ، ولقن المسيحية عن طريق (بولس) وانجيله كما يذكر (ويل ديورانت) يعزى الى العقد الاخير من القرن الاول ، ويهدف الى محاولة تنسيق الروايات عن المسيح والى هداية الكفار (لا اليهود) ، اما انجيل (يوحنا) فأمره اغرب ، فلقد ورد انه اجتمع جمع من الاساقفة سنة 96 م عند يوحنا والتمسوا منه ان يكتب عن المسيح ، وينادى بانجيل مما لم يكتبه الانجيليون الآخرون وان يكتب بنوع خصوصى لاهوت المسيح ، فلم يسعه ان ينكر اجابة طلبهم ، ويقول (ويل ديورانت) عن هذا الانجيل : هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله وخالق العالم .

« يتبع »

موافقة القرآن لكل الحقائق العلمية العصرية

الكلمة التى القاها **الاستاذ محمد الفاسى** بمناسبة ذكرى مرور ثلاثين سنة على تأسيس الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وكازا غستان ·

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الامى الذى بعث الى العالمين ليخرج الانسانية من ظلمات الجهل الى نور العلم واليقين ·

سماحة المفتى الجليل رئيس الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وكازغستان ·

اصحاب الفضيلة :

ايها السادة الكرام ·

احييكم بتحية الاسلام التى تنطوى تحتها اسمى معانى الانسانية التى تتجلى فى الدعاء بالسلام والهناء واقول لكم السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد · فلقد استجبت بكل ارتياح لهذه الدعوة الكريمة لاشارك اخوانى مسلمى الاتحاد السوفياتى فى هذه الذكرى العزيزة وهى الاحتفال بمرور ثلاثين سنة على تأسيس هذه الادارة التى تعنى بشؤون المسلمين الدينية لاخواننا فى هذه البلاد وتسهل عليهم القيام بواجباتهم وشعائرهم وتمتن روابط الاخوة بينهم · ولقد سبق لى ان زرت هذا المركز منذ ست عشرة سنة وشاهدت ما يقوم به من نشاط وما ينجزه من اعمال بفضل المشرفين عليه وعلى راسهم فضيلة الشيخ ضياء الدين بن ايشان بابا خان حفظه الله واعانه على القيام بهذه المهمات السامية وجعله ضياء فى طريق المومنين ونبراسا يستضىء به كل المسلمين فى هذه البلاد العزيزة علينا جميعا بما انجبته من فطاحل العلماء فى كل ميادين المعرفة من علوم الشرع الى علوم اللغة والعلوم المبحتة من فلك ورياضيات وطب وغيرها مما جعل اسماء امثال البخارى والترمذى والنسائى والبيرونى وابن سيناء والسمرقندى وغيرهم ممن يطول ذكرهم اسماء لامعة فى سماء الحضارة والثقافة فى العالم كله ·

ثم اننى ابلغكم تحيات اخوانكم بالمغرب وعلى راسهم جلالة امير المومنين الحسن الثانى وهو من تعلمون ايمانا واخلاصا فى خدمة الاسلام ومبادىء السلام ونشر العلم وتقدير العلماء ·

هذا ولقد اردت ايضا ان اشارك فى هذا المنتدى العلمى الجليل بمساهمة متواضعة فى موضوع يشغل بال المفكرين المسلمين فى هذه العصور التى طفت فيها موجات التنكر للميادين الروحية السامية مما يبلبل افكار شبابنا حيث يدعى ان الاسلام والقرآن الكريم بالذات يخالفان ما يسمونه بالعلوم الحديثة · فأود ان ابين ان هذه الادعاءات باطلة لا تمت للحقيقة بسبب بل العكس هو الصحيح الواضح البين ·

وقبل ان اشرع فى بيان ذلك اود ان انوه بكتاب ظهر فى هذه الشهور الاخيرة لاحد الباحثين الفرنسيين اراد ان يمحص هذه القضية فاقبل على دراسة الكتب المنزلة التوراة والانجيل والقرآن والبحث عما فيها من قضايا علمية وعرضها على ما وصل اليه العلم فى وقتنا ليتحقق مما يوافق نتائج

العلم هذه وما يعارضها · ولم يكن يعرف العربية فلما اخذ منذ سنين طويلة ظهر له ان تراجم القرآن الكريم التى اطلع عليها لا تشفى غليله فى النفوذ الى اعماق معانى القرآن فانكب على تعلم اللغة العربية حتى اتقنها وصار يقرا القرآن الكريم مباشرة باللغة التى انزل بها وبفهمه على حقيقته · وعند ذلك استأنف عمله فى المقارنة فوصل الى نتيجة اعلنها فى الكتاب المشار اليه وهى انه لا يوجد فى الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم منذ اربعة عشر قرنا مسألة واحدة تخالف الحقائق العلمية الثابتة فى حين ان التوراة والانجيل يحتويان على مثل ذلك · ونحن نقول بين قوسين ان هذا يؤيد ما نذهب اليه من أن التوراة والانجيل وقع فيهما تحريف وتبديل والا لكانا ايضا خاليين مما يخالف العلم لانهما فى اصلهما منزلان على رسولين كريمين عليهما وعلى نبينا افضل الصلوات والسلام ·

ثم تخلص من كل هذا الى التصريح بأن القرآن الكريم يستحيل أن يصدر عن بشر لما فيه من حقائق علمية لم يكشف عنها الحجاب الا فى زماننا · وهذا العالم الباحث اسمه بوكاني وعسى ان اوفق الى ترجمته للعربية حتى يعم نفعه جميع المسلمين ·

وبعد هذه التوطئة اقول : ان اول ما نزل من القرآن الكريم على النبى العربى الامين قوله تعالى فى محكم كتابه المبين : « اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » ·

هذه الآيات الكريمة هى ابتداء انطلاقة ثورية لم يعهد لها التاريخ مثيلا قلبت وجه العالم وتحكمت فى مصير الانسانية كلها واخرجت اكثر شعوب الارض من ظلام الجهل وظلم المتحكمين فى بيئة صحراوية امية لا تكتب ولا تحسب ولا عهد لها بالحضارة والتقدم فى ميادين العلم والصناعة ، فما السر فى نجاح هذه الدعوة التى انبثقت وسط هذه الامة التى لم يكن لها من مزية تمتاز بها من بين الامم الا فصاحة لغتها وخيال شعرائها الاميين الذين كانوا ينطقون ما ينطقون به من شعر عن شجية وطبيعة لا يتعلمون ذلك فى مدرسة ولا صلة لهم بالعلوم التى كانت معروفة عند غيرهم ·

وقد يحار العقل كذلك فى السرعة التى تم بها هذا الانقلاب المفاجىء مما يتعجب منه المفكرون والكاتبون وكل الذين درسوا انبثاق هذه الدعوة الاسلامية العظيمة · وذلك ان التاريخ لم يرو لنا قبل الاسلام ولا بعده تطورا سريعا مثل الذى تم به خروج العرب من طور البداوة والامية الى طور الحضارة والعلم · فقد سبقت الحضارة الاسلامية مدنيات راقية من الصين الى جزر اليونان ولكنها تدرجت قرونا عديدة قبل ان تبلغ المستوى العالى الذى وصلت اليه وحتى المدنية التقنية التى تسيطر الآن على العالم فانها تطلبت كذلك قرونا قبل ان تصل الى الحالة التى هى عليها فى وقتنا ·

أما الدعوة الاسلامية فانها بخلاف ذلك لم يمر عليها الا نحو قرن حتى كانت بلغت درجة عليا فى طريق التقدم العلمى والحضارى · وتلك هى معجزة الاسلام وتعاليم القرآن . تلك هى معجزة اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ·

وذلك ان محاولات الحضارات السابقة فى ترقية المجتمعات البشرية كانت تسعى الى هذه الغاية بمحض الدوافع المادية من جهة وبسبب الطموح الى المعرفة الكامن فى الطبيعة البشرية من جهة اخرى وهى دوافع لا شك كافية للوصول الى نتائج مرضية ولكنها لا يمكن ان تساوى عمل الاوامر السماوية فى نفوس ملئت ايمانا وتسابقا الى امتثال ما يحث عليه بل يوجهه الله تعالى فى كتابه المنزل على صفوة انبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ·

ويجب أن نبحث اولا كيف اشربت نفوس المسلمين الاولين الايمان برسالة سيدنا محمد

صلى الله عليه وسلم · لا شك انه كان لشخصية الرسول الكريم بما هياه الله له لتحمل اعباء رسالته الدور الاساسى فى جعل من يعرفونه ويتصلون به يصدقونه فى دعوى النبوة لما كانوا يتحققون من صدقه واستقامته وطهارة اخلاقه وكل الصفات الحميدة التى كان معروفا بها فى وسطه حتى انهم كانوا يسمونه الامين وكانوا كذلك يعلمون انه لم يكن بشاعر ينظم الالفاظ بعضها الى بعض ، وكان فوق كل هذا اميا لا يكتب ولا يقرأ · فآمنوا به وآزروه وعضدوه ولكن الجماهير الاخرى التى تبعته كان لها حافزا آخر قوى للايمان برسالته وهى المبادىء التى جاء ينشرها ويناضل عنها من نصر المستضعفين وتحقيق المساواة بين البشر وتخليص الانسانية من عبادة الاوثان والاشادة بوحدانية الخالق سبحانه تحقيقا لكرامة الانسان الذى جعله الله خليفة فى الارض ولا يجمل بمن كانت هذه مكانته عند المولى تعالى ان تحجب عقله غشاوة الجهل والضلال فيسجد لاحجارة نصبها بنفسه ونسب لها القدرة والالوهية .

نقول كان لكل اثره فى الايمان بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولكن فوق كل هذا بهر هؤلاء العرب جمال ما ينطق به الرسول الكريم مما لم يكن لهم سابق عهد بمثله وهم ارباب الفصاحة وفرسان البلاغة والرسول عليه السلام يقول لهم لا عجب فى ذلك لانه ليس من عندى وانما هو كلام الله انزله على وليس لى منه الا امانة التبليغ · فيومن به من سبقت له الحسنى · هذه هى معجزة الاسلام الخالدة التى تفوق كل معجزات الانبياء السابقين عليهم صلوات الله لان تلك انقضت بانقضائهم وهذا القرآن شاهد دائم مستمر على صحة رسالة محمد بن عبد الله عليه صلوات الله·

ولما اخذ المشركون يقاومونه ويكذبونه ويطالبونه بالاتيان بالمعجزات الخارقة للعادات كان يرد عليهم بأن معجزته هى القرآن ويامره الله تعالى ان يتحداهم بالاتيان بمثله فيقول جل من قائل فى سورة البقرة : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » ويقول فى سورة يونس : « ام يقولون افتراه قل فاتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » ويقرر سبحانه وتعالى استحالة ذلك عليهم بقوله فى سورة الاسراء : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » · صدق الله العظيم .

وهنا ينبغى ان نتعرض لمسالة طال الكلام فيها عند المفسرين وعلماء الاسلام وهى مسالة فواتح السور المبتداة ببعض حروف الهجاء مثل الم وحم .. الخ وقد اختلفت الاقوال فى معناها ولا اريد ان اورد هذه الخلافات لان فى مثل هذا المقام لا فائدة من جلب الاقوال المتباينة وانما ينبغى ان يقرر ما عليه الجمهور وما يوافق مبادىء الاسلام المبنية على العقل · واذا لم يكن هناك اجماع فيتعين الترجيح فلذلك لا ارى ان يكثر على الطلاب من ذكر الخلافات مما يجعلهم يخرجون من الدروس وقد استولت على عقولهم البلبلة والشك لان فى كل شىء اقوالا متعددة · وانما ينبغى ان يترك هذا للباحثين وللدروس التخصصية بعد ان يكون الطلاب حصلوا لب العلم فيلقنوا اذ ذاك اقوال الناس وافكارهم وكيف توصلوا الى استخراج هذه الاقوال · اما العلم الذى ينبغى ان يثبت فى النفوس فهو العلم الخالص المعفى . ولنرجع الآن الى هذه الفواتح التى لا يعرف كثير من الناس حقيقة معناها وانما يتعبدون بتلاوتها لانها وردت هكذا فى القرآن الكريم . والذى يظهر لى فى هذه الفواتح وقد لمح اليه جماعة من المفسرين هو ان لها علاقة بالاعجاز فالله تبارك وتعالى وهو يتحدى المشركين فى الاتيان بمثل هذا القرآن ان كانوا لا يومنون بأنه من عند الله وانما هو من عند محمد بن عبد الله فكانه يقول لهم : ما لكم لا تستطيعون مماثلته وانما هو كلام

مركب من حروف مثل الالف واللام والنون والصاد .. الخ ؟ والدليل على هذا التفسير هو ان كل السور التى تبتدىء بهذه الفواتح يتبعها الله تعالى باسم الكتاب والقرآن والآيات البينات الا فى سورة او سورتين كما سنبينه وفى ضمن هذا التفسير معجزات اخرى باهرة لنبينا عليه الصلاة والسلام.

وذلك ان عدد السور التى تبتدىء بهذه الفواتح تسع وعشرون بعدد حروف اللغة العربية بما فى ذلك حرف الالف الذى هو فى الحقيقة علامة فقط للمد تارة ولحمل الهمزة تارة اخرى ولكنه له رسم خاص فيعد بهذا الاعتبار من حروف اللغة العربية . وهذه فى نفسها معجزة ثم ان عدد هذه الحروف اربعة عشر وتعد نصف الحروف الهجائية باستثناء الالف الذى قدمنا انه لا صوت له وانما هو علامة . وهذا كذلك من اسرار الاعجاز وهذه الحروف هى : « الالف والحاء والراء والطاء والكاف واللام والميم والنون والصاد والعين والكاف والسين والهاء والياء » ويلاحظ ان كل هذه الحروف مهملة بما فى ذلك النون والقاف والياء التى تكتب فى رسم القرآن لما تكون مفردة بدون نقط وكذلك فى الرسم المغربى مما يدل على ان هذه الطريقة هى الطريقة المثلى وهذا ايضا من عجائب هذه الفواتح . وهانا اسرد عليكم السور التسع والعشرين التى وردت فى اوائلها هذه الحروف :

البقرة	الم ذلك الكتاب لا ريب
آل عمران	الم الله لا اله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق
الاعراف	المص كتاب انزل اليك
يونس	الر تلك آيات الكتاب الحكيم
هود	الر كتاب احكمت آياته
يوسف	الر تلك آيات الكتاب المبين
الرعد	الر تلك آيات الكتاب والذى انزل اليك من ربك الحق ولكن اكثر الناس لا يومنون .
ابراهيم	الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور
الحجر	الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين
مريم	كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكرياء
طه	طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى
الشعراء	طسم تلك آيات الكتاب المبين
النمل	طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين
القصص	طسم تلك آيات الكتاب المبين
العنكبوت	الم أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم يفتنون
الروم	الم غلبت الروم
لقمان	الم تلك آيات الكتاب الحكيم
السجدة	الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين
يس	يس والقرآن الحكيم
ص	ص . والقرآن ذى الذكر
غافر	حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم
فصلت	حم تنزيل من الرحمن الرحيم
الشورى	حم عسق كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم
الزخرف	حم والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون
الدخان	حم والكتاب المبين
الجاثية	حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم .
الاحقاف	حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم
ق	ق والقرآن المجيد
القلم	ن والقلم وما يسطرون

وانتم ترون انها كلها اتبعت بما يدل على تنزيل الكتاب المبين الا ما كان من سور ثلاث هى : مريم والعنكبوت والروم . فأما الاولى فانها وان لم يرد بعد الحروف المبتداة بها اسم القرآن والكتاب بالتصريح فان لفظ ذكر فى قوله تعالى كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكرياء هو من اسماء القرآن كما

فى اول سورة ص والقرآن ذى الذكر فذكر الله هو كلامه القديم والذكر الحكيم هو القرآن بعينه فاذن كذلك تعتبر انها اتبعت بما يشير الى الذكر والى القرآن · واما الثانية وهى سورة العنكبوت فانها وان كانت الم بل الحروف التى فى اولها ذكر · القرآن او الآيات البينات فانى ارى ان السر فى ذلك راجع الى كونها تحتوى على ذكر كل الكتب السماوية المنزلة على الرسل الى نبينا صلى الله عليه وسلم حيث يقول فيها الله تبارك وتعالى مخاطبا رسوله الكريم « وكذلك انزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يومنون به ومن هؤلاء من لا يومن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لا رتاب المبطلون » · والتصريح بانه صلى الله عليه وسلم لا يعرف التلاوة ولا الكتابة زيادة فى التحدى لمشركى قريش خصوصا من يعرفون منهم الكتابة والقراءة بأن ياتوا بسورة من مثله فكأنه يقول لهم : انتم ترون ان هذا القرآن هو مركب من حروف ومن حروف ابجدية منقوطة وغير منقوطة وان الذى اوحى اليه لا يكتب ولا يخط بيمينه شيئا · فلا درجة فوق هذا فى التحدى ومع ذلك لم يستطيعوا ان ياتوا بسورة من مثله · وهكذا يكون الابتداء « بالم » كذلك من باب تعجيزهم.

فتبقى سورة الروم وحدها من بين هذه السور التسع والعشرين التى لم يرد فيها اشارة الى التنزيل · وهنا نحتاج الى تاويلات لنؤيد هذا النظر الذى ذهبنا اليه · فهناك ثلاثة وجوه الاول هو انه لما جعل هذه الحروف فى اول تسع وعشرين سورة خصص ثمانيا وعشرين منها للحروف التى تقابل الحروف الحقيقية مع الاشارة الى الكتاب او الآيات البينات او ما يفيد ذلك الوجه الثانى هو انه لما بدئت هذه السورة بحرفين هما الالف واللام وقد وردا فى اول ثلاث سور اخرى وهى البقرة والعنكبوت ولقمان لم يحتج الى تكرير هذه الاشارة ·

الوجه الثالث هو انه فى هذه السورة كما سنراه فى الكلام على اعجاز القرآن من حيث الاخبار بالمغيبات السابقة واللاحقة تحدى كذلك المشركين لانه سيخبر الله تبارك وتعالى فيها بغيب وهو ان الروم ستغلب فى حروبها مع الفرس بعد ان كانت مغلوبة · فكانه يقول لهم ايضا : اننى بهذا الكلام المتركب من حروف عادية اخبر ايضا بالمغيبات التى ستحقق بعد ذلك .

وخلاصة القول ان التحقيق النهائى حسب نظرى فى هذه الحروف هو انها تشير الى اعجاز القرآن وهى من باب التحدى لقريش · فالله تبارك وتعالى يقول لهم ان هذا القرآن مركب من حروف عددها تسعة وعشرون حرفا بعدد السور التى تبتدىء بهذه الحروف وان اربعة عشر منها مهملة وهى نصف عدد الحروف الحقيقية ·وكل هذه التدقيقات لم تكن معروفة اذ ذاك حتى عند العرب لانهم كانوا كما قلنا امة امية وكان شعراؤهم لا يعرفون عروض ولا قوافى وانما ينظمون الشعر سجية واعرابهم لكلامهم لم يكونوا يتلقونه عن اساتذة بل كان لهم ملكة جاء حتى العلماء بعد ذلك وحققوا حروفهم وقسموها الى شمسية وقمرية ومعجمة ومهملة ومع ذلك نرى فى القرآن الكريم هذا الترتيب العجيب وهذه التدقيقات التى شرحناها باختصار .

هذا وجه من اوجه الاعجاز فى القرآن الكريم وقد تصدى علماء الاسلام لشرح كل ما يتعلق بالاعجاز كالامام الباقلانى وعبد القاهر الجرجانى وغيرهما ولكنهم جميعا يهتمون بالناحية التى كان لها بلا شك اثر عميق فى نفوس العرب وجعلتهم يتيقنون ان مثل تلك البلاغة لا يمكن أن تصدر عن بشر مما دفعهم للايمان بالبعثة المحمدية · ولكن القرآن معجز من عدة نواح اخرى وهو كله معجز فهو معجز بالاخبار عن مغيبات سابقة ولاحقة · فأما السابقة فهى مثل قوله تعالى فى سورة يونس مخاطبا فرعون موسى : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » هذه الآية الكريمة تشرح لنا انه لما سلم موسى عليه السلام وخرج مع بنى اسرائيل واتجه نحو فلسطين تابعه فرعون بجنوده فما كان الا أن غرق فرعون

وغرقت جنوده ولكن الله تبارك وتعالى يخبرنا ان جنده لم يضع وهذا بمعنى قوله تعالى : « فاليوم ننجيك ببدنك » قال السيوطى فى تفسير هذه الآية بجسدك الذى لا روح فيه . ومعنى ذلك ان الله تبارك وتعالى اراد ان يبقى هذا الجسد مصونا حتى يمثل للعيان كعبرة للمعتبرين وكمصداق لامانة تبليغ الرسالة الالهية التى انيطت بمحمد صلى الله عليه وسلم · وكيف يمكن ان تكون هذه الواقعة عبرة للمعتبرين ؟ ذلك ما حققته الاكتشافات الاثرية سنة 1881 عند ما وجدت مومية رمسيس هذا فرعون موسى · وهذا امر خارق للعادة . والا فكيف له ان يعلم ان جسد فرعون لم يذهب فى قعر البحر مع بقية الغارقين من جنوده وانه سيحنط وتكتشف موميته فى القرن التاسع عشر ؟ وهكذا تحققت النبوة ببقاء هذا البدن محفوظا حتى يراه الناس ليكون عبرة للمعتبرين وقد وقفت على هذا الجسد المحنط فى متحف الآثار المصرية القديمة بالقاهرة وتدكتب عليه انه فرعون موسى ، فاخذتنى عند مشاهدته قشعريرة وخشية امام هذه الآية الماثلة للعيان ولم ار من ربط هذا الاكتشاف بالآية الكريمة ·

ومن الاخبار للمغيبات اللاحقة قوله تعالى : فى اول سورة الروم : « الم غلبت الروم فى ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » اشارة الى الحرب التى كانت قائمة بين الفرس والدولة البيزنطية التى يسميها العرب (الروم) وقد وقعت هزيمة على جنود هرقل او هراقليوس كما يسميه الروم فى ادنى الارض اى فى فلسطين فى السنين الاولى بعد البعثة المحمدية اى سنة 614 وسنة 619 ثم اعاد الروم الكرة على كسرى وجنوده وانتصروا عليهم فى موقعة نينوى سنة 627 اى خمس سنوات قبل وفاته صلى الله عليه وسلم وتحققت هذه البشارة لان المسلمين كانوا يفضلون ان ينتصر اهل الكتاب من النصارى على المجوس لذلك قال الله تعالى بعد ذلك : « ويومئذ يفرح المومنون بنصر الله » .

ولكن فى القرآن مع كل هذا ناحية ابلغ فى الاعجاز وهو كله بليغ ومعجز وهو ما يحتوى عليه من اسرار الكون ودقائق علومه · وهى ناحية لم يبرزها علماء الاسلام بالكيفية التى تستحقها كما كان شانهم مع آيات الاحكام · وهذا امر ضرورى لا شك لان الاسلام جاء للهداية وللتشريع ولتنظيم حياة الامة الاسلامية ولكن للناحية العلمية البحتة حظ كبير من عناية القرآن الكريم وقد اشتغل العرب بهذه العلوم وقدموها ووصلوا فيها الى انتصارات عظيمة وكل واحد يعلم ان الدورة الدموية مثلا كان اول من اكتشفها وعرفها هو ابن النفيس وان الجبر والارقام العربية مما يرجع الفضل فى وضعها للعرب ولولا اكتشاف ما يسميه مؤرخوا الرياضيات بالمعجزة العربية ويعنون بها اكتشاف الصفر لما بلغ التقدم المادى والعلمى والتقنى الى هذه الدرجة التى يوجد عليها الآن لان اساس هذا التقدم هو العلوم الرياضية التى برز فيها العرب ، ولكن مع ذلك لم يتابعوا البحث حسب ما يامر به الله تبارك وتعالى فى كتابه المبين اذ ان الآيات الكونية فى القرآن تبلغ اكثر من سبعمائة آية كلها تتعلق بعلم الطبيعة وبالحيوان والفلك والاكوان كلها فى حين ان الآيات الصريحة المتعلقة بالاحكام هى نحو الخمسين ومائة وقد ابلغها ابو بكر بن العربى الى خمسمائة . وهكذا فان الآيات الكونية تحتل مقاما كبيرا فى القرآن الكريم مما يدل على ان الاسلام جاء لحث الناس على البحث والنظر واقتباس المعرفة وهنا يظهر السر فى كون اول ما نزل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم هو هذه الآيات الكريمة : « اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » · ان محمدا صلى الله عليه وسلم بعث للقضاء على الشرك ومحاربة عبادة الاصنام التى لا تليق لكرامة الانسان الذى جعله الله خليفة فى الارض ولا يليق به ان يبنى بنفسه احجارا او يصنع بنفسه تماثيل ثم يصير يعبدها وينسب اليها الارادة والقدرة ، فالاسلام جاء للقضاء على هذه الضلالات ولاحلال الحق فى المكانة

التى يستحقها كما جاء لاقرار المساواة بين البشر ولتنظيم المجتمع الانسانى على طريقة تضمن للانسان السعادة فى الدنيا والفوز فى الآخرة وللامر بالتخلق بالاخلاق الفاضلة والكمالات الانسانية والاقبال على ما استكنه اسرار الكون واكتساب المعارف كلها وتعلمها وتعليمها ، ولكن الله تبارك وتعالى اختار أن يبتدأ من بين كل هذه المبادىء التى ارادت مشيئته ان يقوم رسوله الامين بتبليغها لعباده بمبدأ تعلم العلم بالقراءة والكتابة مؤذنا بأن الاسلام هو دين العلم .

بالعلم تكتسب كل تلك الفضائل فتوحيد المولى تعالى يجب أن يرتكز على اليقين الذى يؤدى اليه العلم وكل التنظيمات الاجتماعية والترتيبات الادارية والتقدم فى الميادين الحضارية كل ذلك لا يتاتى بدون علم . وقد جمع الله تعالى كل ما يتعلق بالعلم والتعليم فى هذه الآيات الثلاث .

لذلك كان الحث على طلب العلم من اوجب الواجبات فى الاسلام فالاحاديث الواردة فى ذلك كثيرة معروفة . ولا اريد ان اطيل عليكم بهذه الاحاديث .

ولكن نجتزىء منها باثنين وهما قوله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) والتنصيص على المسلمة كما ورد فى احدى الروايات اشعار بأن المراة فى الاسلام شقيقة الرجل فى الحقوق والواجبات . والا فلفظة مسلم فى عمومها تشمل الذكر والانثى . وهذا ايضا شىء جاء به الاسلام ولم يكن له فى الديانات الاخرى ولا فى المدنيات السابقة ولا حتى فى الحضارة العصرية ما يماثله فالاسلام هو الذى اعطى المراة المقام الذى تستحقه اذ سواها بالرجل الا فيما كان يختص بها من حيث تكوينها الطبيعى . والحديث الثانى هو قوله صلى الله عليه وسلم : (اطلب العلم ولو بالصين) ومعنى ذلك انه يجب عليك أن تسمو الى اكتشاف العلم والمعرفة ولو تطلب ذلك منك مشاق السفر الى اقصى الارض . ويؤخذ من هذا الحديث ثلاث مسائل هامة اولاها أن على المسلم ان ياخذ العلم ولو عن الكفار والا لما قال صلى الله عليه وسلم ولو بالصين لان من المعلوم ان الاسلام لم يكن وصل اذ ذاك الى الصين . والمسالة الثانية هى ان العلم لا يراد به هنا علم الدين الاسلامى وانما المقصود به العلوم على اختلافهما من فلك وطب ورياضيات وتاريخ وفلسفة وقانون الى غير ذلك من العلوم . والمسالة الثالثة الحض على تعليم اللغات الاجنبية لانه لا يعقل ان يطلب العلم بالصين بدون معرفة لغة علمائها .

أما ما فى القرآن الكريم من تقدير للعلم وحث على طلبه وعلى تدبر ما فى الكون فذاك البحر الزاخر ويكفى ان نعلم ان عدد الكلمات المشتقة من مادة علم تفوق بعد كلمة الله والايمان به كل المواد اللغوية فقد عددتها فوجدت انها خمس وعشرون وسبعمائة مفردة فاذا اضفت اليها المفردات المشتقة من مادة كتب وهى خمس وثلاثمائة والمشتقة من مادة قرا وهما ملازمتان للعلم اذ لا علم بدون كتابة وقراءة يكون المجموع ست عشرة ومائتين والف مفردة وهذا لا يوجد فى كتاب دينى آخر زيادة على ما فى القرآن الكريم من حكم وقصص وتشريعات ولكنه يمتاز بالحث على طلب العلم وبتفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون .

وهذا وحده كاف للتدليل على ان الاسلام دين العلم — وان مناقشة اهل العلم يتفق مع الدين مسالة مدسوسة على الاسلام فالدين هو العلم ، والعلم بكل ما تؤديه هذه اللفظة من معان وكيف يكون العلم منافيا لدين كان اول ما اوحى من كتابه.

« اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

« وما لم يعلم » شامل لكل ما يمكن ان يعلم. وكيف يكون العلم متنافيا مع دين يدعو كتابه من اوله الى آخره الى الاعتبار والى النظر ويعطى للعلماء ذلك المقام الذى نراه لهم فى القرآن الكريم . وهكذا فهم المسلمون آيات كتابهم المبين فكانت هى

الحافز الاول للعرب للوصول بالعلوم الى الدرجة السامية التى بلغوها امتثالا لتعاليم القرآن بعد أن اقتسموا العلوم من الامم السالفة وبحثوا عنها وترجموا كتب العلم من لغات امم غير اسلامية وطبقوا تلك المعلومات وزادوا فيها وعملوا على نشرها . واذا كان واضحا أن تبتدىء الرسالة المحمدية بهذا الامر الصارم فى الاقبال على استكناه اسرار الخلق فان المعجزة الكبرى ان يوجه هذا الخطاب لرجل امى يعيش وسط امة لا تكتب ولا تحسب ليجعل منها امة العلم التى لم يمر عليها الا يسير من الزمن بالنسبة لتاريخ تطور العلوم فى الامم السابقة حتى كدست مآت الآلاف من المؤلفات فى كل انواع المعرفة مما لو بقى كله وعد لفاق كل ما كتب فى المدنيات السابقة والحاضرة بما فى ذلك هذه المدنية العصرية وبكل اللغات . اذ طوال هذه الاربعة عشر قرنا والعرب يكتبون والمسلمون يكتبون وغير المسلمين ممن تثقفوا بالثقافة الاسلامية والعربية يكتبون . كل هنا من بركة .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

ومن المعجز كذلك أن هذا الامر بالاقبال على القراءة اقترن فى نفس الوقت بمنهج وهو ان الانسان يجب ان ينظر اولا الى نفسه وجسده ويرى كيف كون ومن اى شىء خلق ليتدرج بعد ذلك الى معرفة اسرار المخلوقات كلها مما تزخر به آيات القرآن ولو اردنا أن نتدبر كل الآيات الواردة فيه والمتعلقة بالعلم والمعرفة والتدبر فى ملكوت السماوات والارض وشرح كل ذلك بما وصل اليه العلم الى الآن لتطلب هذا العلم وضع المجلدات الضخام .

وهذه الآيات الكونية او جلها التى قدمنا انها تفوق سبعمائة آية ترد مقرونة بمثل قوله تعالى فى سورة الانعام : « قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » او بمثل قوله تعالى فى نفس السورة : « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » .

او بمثل قوله تعالى فى سورة الرعد : « ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » او ما كان فى معنى ذلك وكل هذا تنبيه منه تبارك وتعالى لخلقه ليتفكرون فى ملكوت السموات والارض وليتفقهوا ليس فقط فى اوامره ونواهيه مما هو لا شك الغاية من الرسالة المحمدية وانما ايضا فى علوم الكون ليزدادوا ايمانا ويقينا فيتبعوا عن طواعية اوامره ويجتنبوا نواهيه . اذ النفوس مفطورة على حب الشهوات لما تجده فيها من لذة بدون الالتفات الى مضرتها فلا يمكن ان يصدها عنها الا الاقتناع التام المنبعث عن عقيدة راسخة وذلك الايمان الصحيح . فالمقصود من الاقبال على العلم هو فى نفس الوقت لما يترتب عليه من فوائد دنيوية ولما يؤدى اليه من التخلق بالاخلاق الفاضلة .

ثم ان امر الله تعالى خلقه بالتفكير فى اسرار الكون يدل على ان اساس الدعوة الاسلامية هو احلال الانسان فى المكانة اللائقة به كمخلوق وهبه الله تعالى العقل والتفكير من دون كافة مخلوقاته . فالجدير به أن يعرف اسرار الكون وان يبحث عنها ويتطلع الى معرفتها لتسمو مداركه وينتفع فى شؤون معاشه بالطيبات التى يسرها الخالق تعالى له وجعلها طوع يديه ان هو اقبل على تعلم وسائل استثمارها .

اما ما يتعلق بشرح الظروف وينبغى هنا ان نبين المناسبة لوصف الله تبارك وتعالى نفسه فى هذه الآيات الكريمة بالاكرم ومعناه المطلق الكرم سبحانه وتعالى والكرم الذى انعم به على عباده لا يعادله كرم . وذلك انه تولى فى كتابه تعليم البشر ما لم يكونوا يعلمون بما ضمنه من الآيات البينات فى شتى مناحى الحياة ومختلف العلوم وهل هناك كرم اعظم من ان يمن على الانسان بالعلم والتعليم والكتابة التى تنبثق عنها كل هذه المدنيات وهذه الاختراعات وهذه الاكتشافات وهى اكبر كرم تكرم به الله تبارك وتعالى على الانسانية : لذلك وصف نفسه هنا بأحد اسمائه الحسنى هو الاكرم اشارة

منه تعالى الى انه اكرم الجنس البشرى لانه أعطاه العقل واعطاه العلم ويسر له المخلوقات بما يصل اليه من اكتشافات . وتخصيصه فى هذه الآيات الاولى المنزلة على رسوله الامين ذكر خلقه سبحانه الانسان من علق تنبيه الى وجوب تدبر اسرار الخلق كلها مما فصله سبحانه فى محكم كتابه لمن يعلمون ويتفقهون هذه الآيات الكريمة · وذلك كما قدمنا ما حدا بعلمائنا الاولين الى الاقبال على اكتناه المجهول فى شتى مناحى المعرفة مستندين الى المبادىء العلمية التى تضمنها القرآن الكريم والتى لا نجد لها مثلا فى الكتب السماوية الاخرى ويتعين على علمائنا اليوم المختصين فى العلوم البحتة من طبيعيات وكيمياء الى غير ذلك أن يتدبروا هذه الآيات ويخرجوا منها ما لا يستطيع غيرهم أن يعرفه لان فى القرآن الكريم من هذه الاسرار ما نص عليه ونومن به ولكن لا يستطيع كل واحد ان يتفهم مغزاه وان يدخل فى عمق اسراره، ولا يمكن ذلك الا للعلماء الاخصائيين وقد وقعت محاولات فى هذا الباب من بعض العلماء ولكننى اهيب بكل العلماء المسلمين فى كافة الاقطار الاسلامية ان يهتموا بهذه الناحية ويدرسوا اسرار الكون فى القرآن ويطبقوها على ما يعرفه العلم الآن · ثم ان الحكمة الالهية اقتضت أن الانسان بما وصل اليه من نمو فى فكره وعقله يجب عليه ان ينحى اتجاها جديدا فى الحياة وان يقبل على ترقية مداركه · فحثه المولى تعالى اولا على استعمال عقله فى تفهم كل الظواهر الطبيعية والقوانين الكونية ليكون ايمانه بالخالق جلت قدرته ايمانا مبنيا على اليقين الذى ينتج عنه الاطمئنان · فانه اذ يخاطب عقولهم · واذا قرر مثلا فى سورة البقرة وحدانيته بقوله جل من قائل : « والهكم الاه واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » يردف هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخرين بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » · ويندد فى آيات كثيرة بالذين يومنون تقليدا ويتبعون مما وجدوا عليه آباءهم ولو كان هؤلاء لم يستعملوا عقولهم ليتبينوا ما كانوا عليه من الخلال فيقول تعالى فى سورة البقرة كذلك : « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما القينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ·

وهذه المكانة التى اعطاها القرآن الكريم للعقل هى التى فتحت امام المسلمين طرائق البحث وجعلتهم يكتشفون من اسرار العلوم فى الفلك والرياضيات والطبيعيات وعلم النفس والطب وكل العلوم ما تزخر به مؤلفاتهم التى بلغت عددا لم تبلغه مدنية قبلهم ولا بعدهم · اذ من المقرر ان الكتب التى وضعها المسلمون والمثقفون بثقافتهم وبلغة القرآن فى هذه القرون الاربعة عشر لو بقيت كلها وقورنت بما وضع فى المدنية المعاصرة لفاقت مجموع ما الف فيها على كثرته وبسائر اللغات كما قلت سابقا ·

ومن الامر بالنظر والتفكير ينتقل القرآن الكريم بالمومنين الى الحث على اكتساب العلم وذلك بتقرير مقامه السامى اذ يقول سبحانه فى سورة الزمر : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » واذ يقول جل من قائل مبينا مقام العلماء من خشيته تبارك وتعالى وذلك فى سورة فاطر : « الم تر ان الله انزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء » اى العلماء الذين يتدبرون هذه الظواهر الطبيعية وهذه المخلوقات التى احسن صنعها الخالق سبحانه وتعالى وهذا اكبر دليل على ان العلم المقصود به قبل كل شيء فى القرآن هو علم الكون وهو علم هذه الاشياء التى ذكرها الله تبارك وتعالى واردفها بقوله : « انما يخشى الله من عباده العلماء » وعند ما نسمع هذه الآية تنصرف افكارنا دائما الى

الذين يعلمون الشرائع والفقه وهم محترمون وهم ضروريون وهم الذين حافظوا لنا على ديننا وحافظوا لنا على ثقافتنا وعلى لغتنا · ولكن ينبغى أن نتفهم كلام الله كما نزل فهو عند ما يذكر سبحانه العلماء يقصد بهم كل من يعلم علما سواء كان من علوم الشريعة أو من العلوم الطبيعية من احياء وهيئة وفلك وطب وانواء وغيرها من العلوم التى فصلها الله تبارك وتعالى فى هذه الآية وفى غيرها من آيات الذكر الحكيم · ثم ان من تقدير القرآن للعلم وللعلماء ما يذكره سبحانه وتعالى من فضله على بنى آدم اذ بعث سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم برسالة تعليم البشر ما لم يكونوا يعلمون فيقول فى سورة البقرة : « كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » ·

ويتولى الخالق تعالى تشريفا للنوع البشرى تعليمه بواسطة رسوله الامين وكتابه المبين فيقول فى سورة البقرة كذلك : « ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم » فهذا تكريم عظيم للنوع البشرى كون الله تبارك وتعالى الخالق البارى هو الذى تولى تعليم البشر وارشادهم ·

ثم انه من البديهى أن الله تبارك وتعالى لم يقصد أن يجعل من الكتاب الذى اوحاه الى رسوله لهداية البشر كتاب تعليم للعلوم الكونية بتفصيل المسائل وتبويبها وذكر جزئيات العلوم وانما وضع مبادىء وتعاليم أوجب على المسلمين السير على هداها ليبلغوا ما اراده لهم من استكمال انسانيتهم وتحقيق كرامتهم · واعطى امثلة من الحقائق العلمية منها ما توصل العلماء المسلمون الى تفهمها وشرحها وبيان جزئياتها ومنها ما لم يتضح الا بعد تقدم العلوم الكونية فى هذه العصور·

ويطول بنا الحديث لو اردنا ان نتتبع هذه الآيات الكونية ونورد ما يقول فيها العلم الحديث كالآيات العديدة المتعلقة بعلم الفلك مثل قوله تعالى فى سورة يسن : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » وكتقرير ان الحياة تقترن بالماء ومنه أصلها كما قال تعالى فى سورة الانبياء : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » ولبيان تكوين الجنين الى أن يخرج بشرا سويا مثل قوله تعالى فى سورة المومنون : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين » ·

وهذا التدرج فى تكون الجنين من أول عملية الاخصاب الى أن يصير خلقا آخر اى ذا عقل واحساس بعد تكونه المادى هو وصف دقيق يتفق تماما مع ما توصل اليه علم الاجنة وعلم التشريح· ولو تتبعنا ذلك من الناحية العلمية التى لا يعرفها الا المختصون لراينا أن ذلك هو ما يسير عليه التكون بالضبط منذ أن تلتقى نطفة الذكر ببيضة الانثى مما لم يكن معروفا مطلقا عند العرب قبل الاسلام ولا عند الامم التى سبقتهم الى العلم والمعرفة بل لم يتوصل حتى علماء الاسلام الى هذا التدقيق مع انه كان لهم من كلام الله ما يرشدهم اليه · ولكن هذه سنة الله فى جعل اعمال البشر تسير بالتدرج فى المعرفة والبحث فجعلت هذا الفضل يدخر لعلماء هذا العصر ·

وكم فى القرآن الكريم من عجائب من هذا النوع لا تزال مغلقة علينا وتحتاج الى من يتصدى لها لمحاولة استكناه حقائقها بل ارى ان لو عمد علماء الطبيعيات والفلك وغيرهما من العلوم الكونية الى الآيات التى تتعرض لهذه الظواهر وهى كما قدمنا تفوق السبعمائة آية وجعلوها اساسا لدراسات جديدة اتخذوها كفروض بحث معتمدين على ما تم تحقيقه فى العلم الحديث لتوصلوا الى ما يبهر العقول ويزيد فى تقدم المعرفة عوض ان ينتظروا أن يقرر العلم مثلا ان الجنين يتكون بكذا وكذا فيقولون هذا ما نراه فى القرآن فيجب ان يتيقنوا ان

كل ما ورد فى القرآن الكريم حق ولو لم تبلغه مداركنا ·

ومن عجائب ما ايده العلم فى تكوين الجنين ان الخصيتين فى مبدا تكونهما وكذلك المبيضان بالنسبة للانثى تكون فى ظهر الجنين عند اسفل الكليتين بالضبط وتبقى تحتهما حتى الشهور الاخيرة من حياة الجنين فى بطن امه ثم تنحدر الى الاسفل على ما حققه علم الاجنة · فاذا عرفنا هذا ورجعنا الى قوله تعالى فى سورة الاعراف : « واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم » تبين لنا معنى اخذ الذرية من الظهور حيث ان المقر الاول لمواد النسل الاساسية يكون فى ظهر الجنين · هذه ايضا من معجزات القرآن ·

ومن هذه الآيات البينات التى شرح العلم الحديث مغزاها قوله تعالى فى سورة البقرة : « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن بأنفسهن اربعة اشهر وعشرا » · فقد اظهر علم الاجنة انه لا يمكن سمع قلب الجنين ينبض فى بطن امه الا بعد وصوله هذه المدة المقررة فى هذه الآية المعجزة · وكلام الله كله معجز سبحانه وتعالى ·

ومن القضايا المعجزة فى القرآن وكله معجز قوله تعالى فى سورة الانعام : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام · ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » فتشبيه الضيق والحرج بالحالة التى تصيب من يصعد فى السماء لا يمكن ان يدرك تمام الادراك الا فى وقتنا هذا حيث نعلم ان من يركبون الطائرات يضيق صدرهم حتى يحتاجوا احيانا الى استنشاق الاكسجين للتفريج عنهم ولم يجرب احد فى ايام النبى صلى الله عليه وسلم الصعود الى السماء فسبحان الله العليم بكل شىء ·

ومن المنجزات الباهرة التى توصل اليها العلم والتقنيات فى هذا العصر الوصول الى القمر مما ادهش العالم واعتبره الجهال كأمر لم يكن فى حسبان الديانات وربما يخالفها والحالة ان المتدبر للقرآن الكريم يجد فى سورة الرحمن قوله تعالى : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » وهذه الآية الكريمة تقرر اولا انه لا يستحيل على الانسان ان ينفذ من اقطار الارض اى : الى السماء ومن اقطار السماء الى الارض · انما شرط ذلك بالاستطاعة وجعل ثانيا هذه الاستطاعة مقترنة بالسلطان اى بالمقدرة العلمية ·

وهكذا يصير امر الوصول الى القمر والى الذرارى كلها امرا ميسورا بفضل ما من الله به على الانسان من فضيلة العقل الذى يكتشف به عن مكنونات الحقائق العلمية مما حث الاسلام عليه وارشد القرآن الكريم الى طرقه ·

ومن الشبهات التى يوجهها اعداء الاسلام للقرآن قولهم : نجد فى القرآن آخر سورة لقمان هذه الآية : « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى ارض تموت . ان الله عليم خبير » ويعلقون عليها بقولهم ان العلم توصل الآن الى استطاعة تنزيل المطر من السحب كما استطاع بتحليلات بول الحامل أن يعرف ما فى بطن الحامل ذكر ام انثى والجواب على هذا عند من يستندون على حديث ام المومنين مولاتنا عائشة رضى الله عنها جاء فيه ان الله تبارك وتعالى استأثر بمعرفة هذه الاشياء الخمسة فانهم يقولون ان معرفة العلماء ان صحت لما فى بطن الحامل فانه علم ناقص لان العلم الذى استأثر به المولى تعالى فهو العلم بدقائق تكون الجنين وشكله ولونه وكل صفاته الخلقية وما يكون عليه من الصفات الخلقية · واما الغيث الذى ورد فى القرآن الكريم فليس هو مجرد مطر ضئيل يفجر من السحب بتسليط مواد كيماوية عليها وانما المقصود اغاثة البشر حسب ارادته تعالى بكيفية شاملة ينتج عنها الخير والنماء ·

وهذا الجواب ان اقتنع به المسلمون المومنون فانه لا يمكن ان يقنع المعاندين لذلك ابلغ لكم جوابا لامير المومنين جلالة ملك المغرب الحسن الثانى نصره الله وهو كما يعرفه الكثير منكم من العلماء الراسخين المتدبرين للقرآن الكريم وهو فى كل مجالسة يتعرض لقضايا من هذا النوع ويسلط عليها مع ايمانه الراسخ نبوغه الفطرى وعلمه الواسع فى شتى مناحى المعرفة وهكذا جرى ذكر هذه المسألة فى احد مجالسه فى ليالى رمضان الماضى فقال : ان الله تبارك وتعالى استعمل اربع عبارات مختلفة بالنسبة لهذه المسائل الخمس · فقوله تعالى « ان الله عنده علم الساعة » يشعر بأنه استأثر بهذا العلم فقال عنده ولم يقل يعلم وقوله تعالى : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » نفى بات لامكان معرفة الانسان لذلك ، وهذان الامران ايضا مما استأثر بعلمها سبحانه وتعالى · اما تنزيل الغيث فلم يستعمل فيه عبارة تدل على أن الانسان لا يستطيع بما وهبه الله من عقل وعلم ان يفجر السحب لتغيث الناس بمطرها · وكذلك لم يقل عنده علم ما فى الارحام وانما قال يعلم ولم يحرم على عباده ان يسموا الى علم ذلك ، بل كل ما فى القرآن كما قلنا مرارا يحض على طلب العلم واستكناه المجهول والنظر فى مظاهر الكون لمعرفة اسرارها · وقد اعجبنى جدا هذا التاويل · واستأذنت صاحب الجلالة أيده الله فى روايته عنه فى هذا الحديث الذى كنت انوى القاءه عليكم فاذن زاده الله تبصرا فى كلامه القديم ومعرفة لدقائق اسراره ·

ومن اروع الامثلة على هذه الحقائق العلمية التى وردت فى القرآن الحكيم والتى بقيت مغلقة لا تدركها العقول لان مدارك الانسان لم تكن بلغت بعلمها الى تفهمها لبعدها عن المعتاد البشرى فجاء العلم الحديث يؤيدها ويقررها قوله تعالى فى سورة الحج : « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده · وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » فذهب المفسرون الى ان هذا الطول انما هو بالنسبة لعذاب الآخرة فيظهر للمعذبين عذاب يوم كأنه الف سنة وحتى المفسرون المعاصرون لا يزيدون على هذا فترى مثلا فى الجزء السابع عشر من تفسير القرآن الكريم لثلة من العلماء انهم يقولون : (وان يوما واحدا من أيام الآخرة التى يكون فيها الامر لله لشدته وهو له أيها الكفار ليرى كألف سنة مما تعدون فى الدنيا لان ايام الشدائد يستطيل الانسان منها كل ثانية) (ص 95) ·

ومن البديهى انه لم يكن فى مقدور المفسرين القدماء منهم ولا المحدثين ان يعرفوا نظرية النسبة قبل اكتشافها ولا تطبيقها فى التنقلات بواسطة الصواريخ عبر الفضاء · وذلك انه من المقرر علميا الآن أن الحركة توثر فى الزمن كما بينه منذ بضع سنين الاستاذ ارزيليبس وهو من اساتذة كلية العلوم بجامعة محمد الخامس بالرباط ومن اساطين علماء الفيزياء خصوصا فيما يتعلق بنظرية النسبة ولتآليفه شهرة عالمية وقد ترجمت الى عدة لغات وما التقيت بعالم من علماء هذا الشأن فى الجامعات التى زرتها الا ويسألنى عنه وعن آخر ما انجز من الابحاث ·

قال هذا الاستاذ فى درسه الافتتاحى للسنة الجامعية عام 60 — 61 ان نظرية الزمن التى تقتضى انه لا يتغير لم تعد مقبولة منذ ان اصبح علماء الفيزياء متجهين اتجاها جديدا بعد أن وضع الفيزيائى العظيم اينشتابن نظريات نسبية للفيزياء وصارت فكرة الزمن موضوع دراساتهم وتوصلوا الى نتائج مدهشة · واول خاصة غريبة اكتشفوها هى تلك التى اطلقوا عليها لفظ « تمهل الزمن » واليكم وصف هذه الظاهرة : لنفرض مجموعة من ساعات دقاقة ولنضعها على الارض مستقرة لا تتحرك ولنعمد الى ساعة تتحرك بسرعة خاصة وهى تشير قبل ابتداء حركتها الى نفس الوقت الذى تشير اليه الساعات المستقرة . فاننا نلاحظ أن الساعة المتحركة عند ما تمر امام احدى

الساعات المستقرة تشير الى زمن متاخر عن زمننا فاذن سبب هذا التأخر هو الحركة وهو ينمو حسب السرعة . وعلق الاستاذ على هذه الحقيقة بتقرير ما يلى : انه ان قدر لمسافر فى سفينة فضائية تسير بسرعة معينة ان يغادر الارض وهو ابن ثلاثين سنة مثلا وترك فى الارض زوجا لها نفس عمره ثم رجع بعد عام من حسابه يجد أن زوجته صارت عجوزا فى الغابرين مع انه لا يزال شابا واردف هذا التقرير بنكتة حيث قال : لهذا كان التشريع الذى يفرض على المراة ان تصاحب زوجها فى اسفاره تشريعا معقـــولا .

ومن جملة ما ورد فى هذا الدرس الممتع ان هذه الاشياء ليست من قبل الخيال فى شىء وليس من عادة العلماء الفيزيائيين ان يطلقـــوا العنـــان لخيالهم وانما هم لا يقولون الا ما تؤكده التجربة والواقع . بل نستطيع الآن كما يقول علماء النسبية أن نحسب المعادلات بين الزمن كما هو مع السرعة التى تعد بارقام فلكية ، وبين الزمن الذى ينقضى فى نفس الوقت على الارض وهذه هى المعادلات بالنسبة لسرعة معينة : فاذا قطع المسافر عبـــر الفضاء ثلاث سنوات تمر فى الارض عشر واذا قطع ستا تقابلها مائتان ، واذا قطع عشرا تقابلها احد عشر الف سنة وخمس عشرة سنة فى الفضاء يقابلها فى الارض مليونان من السنوات . وهـــذا بالحساب العلمى لا بالخيال .

وهكذا يأتى العلم بعد اربعة عشر قرنا من نزول القرآن المبين ويشرح أن السنين التى نعدها فى الارض لا تعد فى ملكوت الله سبحانه الا بالدقائق والثـــوانـــى .

ومن تمعن فى الآية الكريمة ير ان قولـــه تعالى : « وان يوما عند ربك كالف سنـــة ممـــا تعدون » لا يترتب على العذاب كما فهمه المفسرون الاولون وانما على الاستعجال لان الاستعجـــال يقابل الزمن وهم ذهبوا جميعا الى تفسير طول اليوم بالعذاب الشديد ولكن سياق كلامه تبـــارك وتعالى يقتضى انه يجيبهم لا عن العذاب ولكن عن الاستعجال فكأنه سبحانه يقول لهم : مهلا عليكم فان لى الزمن كله : وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون فان هذا العذاب سيحل بهم ولو طال الزمن فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه تـــرجعـــون .

ونستخلص من هذه الملاحظات حول مقام العلم والعقل فى الاسلام انه ينبغى فى هذا العصر الذى عمت فيه بلبلة العقـــول من جـــراء هـــذه الانقلابات والتطورات فى الحياة الاجتماعية المترتبة على ما حققه التطبيق العلمى للاكتشافات العلمية مع ما يتبع ذلك من ظهور آراء جديدة ونظريات غريبة تستولى بالخصوص على الشباب الذى يتطلع الى مستقبله بعين كلها حيرة وتساؤل ينبغى امام هذه التيارات أن يكون توجيه شبابنا منطلقا مـــن هذه الناحية الاعجازية فى القرآن . وينبغى اذن لنصد الشبان عن هذه التيارات ان نـــرسم لهم الطريق من هذه الناحية وهى تقرير ان الاسلام هو دين العبادة ودين الاستقامة ودين الاخـــلاق الفاضلة ، ولكنه ايضا دين العلم ، يجب ان نخاطبهم بما يعلمون وبما يرون عند غيرهم . فاذا قلنا لهم أنتم ترون ان هذه الاشياء التى توصل اليها غيرنا من عندنا ولما كنا سادة الدنيا وكنا نعمل بكتابنا وكنا نتتبع آياته كنا بلغنا درجة لم يبلغ احد سوانا مثلها وقد من علينا الله بالبقاء لان الامم الاخرى التى اصابها مثل ما اصابنا من تخلف وانحطاط اداها الى الزوال فى حين لـــم يصب الحضـــارة الاسلامية الا خمود طال لا شك مدة طويلة ولكن اعقبته يقظة شاملة بفضل رجال قيضهم الله لاحياء هذا الدين الحنيف ومن هؤلاء الرجال جماعـــة اخواننا المشرفين على هذه الادارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وفازغستان فالمولى تعالى المسؤول ان يعينهم ويوفقهم الى تأدية هذه الرسالة السامية على احسن وجه والسلام عليكم ورحمة الله .

آثار المادية

نقلا عن مجلة « الوعى الاسلامى » الكويتية
عـــــدد 132 السنـــــة 11

ان وجود الاتجاه المادى فى اى مجتمع يعتبر اصلا من اصول الحياة الانسانية · على معنى : انه لا يخلو مجتمع بشرى من نواة هذا الاتجـاه على الاقل ثم قد يبقى فى اطار محدود ، وقـد ينتشر فتبدو آثاره ونتائجه واضحة · ولكنه على اية حال موجود وقابل للتوسع والانتشار .

ويـوم ينتشر تتجلى معالمه واماراته ، ثم يصير المجتمع الذى انتشر فيه حتما الى السقوط والزوال ، وهناك اذن ثلاث مراحل تتصل بهـذا الاتجـاه :

المرحلة الاولى : مرحلة وجوده وقابليتـه للتوسـع ·

المرحلة الثانية : انتشاره وتوسعه بالفعل ، وامارات ذلك ·

المرحلة الثالثة : سقوط المجتمع الذى تمكن منه هذا الاتجاه فى حياة افراده ·

والقرآن الكريم يكشف عن هذه المراحـل الثـلاث :

فعن المرحلة الاولى نقرأ قوله تعالى :

« وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون» الانعـام / 123 .

.. فالشق الاول من هذه الآية وهـو : « وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها » يقرر : انه فى كل مجتمع بشرى : ـ فى الماضى او فى الحاضر ، فى الغد القريب او البعيد صغر ام كبر ، فى حالة بدائية او تطورية ـ يوجد بعض العمد والاكابر من أصحاب الاتجاه المادى فى الحيـاة .

وهذا البعض هو الذى عبر عنه هنـا : بـ «اكابر مجرميها » · وجعل هذا البعض مـن « المجرمين » للتدليل على طبيعة الاتجاه الذين يخضعون له فى حياتهم ، وليس ، الا الاتجاه المادى، لانه وحده هو الذى يدفع الى الجرائم ويستحيل ان يكون الاتجاه المقابل ، وهو اتجـاه الايمـان بالله · او هذا الاتجاه الاخير لا يجعل الدنيا ومتعها المادية بحال المنافسة بين الافراد . انما يسعى لينقلهم الى مجال العمل الصالح ، بدلا من مجـال تحصيل المتع الدنيوية · وهو العمل الانسانـى الذى يرتفع فوق النزوات والجنـوح ، وفـوق الخصومات ، والانحرافات ، والجرائم .

واذن فى كل مجتمع بشرى شرذمة او مجموع من اصحاب الاتجاه المادى فى الحياة تتزعمـه ، وتحاول ان تنفث سمومه فى المجتمع · ومحاولـة ذلك هى ما يعبر عنها بقوله : « ليمكروا فيها » · اذ محاولة « المكر » فى « القرية » ـ او فى المجتمع ـ هى محاولة « الفتنة » و « الفساد » .. هى محاولة السير وراء الهوى والشهوة فى غير حد ، وفى غير اعتبار لامر آخر سوى تحقيـق المتعـة الحسيـة .

وفى كل مجتمع بشرى اذن فى اى عهد وزمن ممثلون للاتجاه المادى فى الحياة ممن يعتمد عليهم فى التمثيل ، وتتوفر فيهم صفات الزعامة والرياسة للفكر او الاتجاه · ثم فى الوقت نفسه لا يقتصر نشاطهم على تمثيل الاتجاه ، بل يدعـون اليـه

بالقدوة فى اثارة الفتن ونشر الفساد ، وما يعترض كل قيمة من القيم المثالية ، التى يرتكز عليها الاتجاه الآخر وهو اتجاه الايمان بالله .

ومع وجود هذا الاتجاه المادى فى الحياة كحقيقة اكيدة ومقررة ، ومع فاعليته — وعدم جموده فى وجوده — واخذه المبادرة فى المكر والفتنة، فانه لا يستطيع ازالة الاتجاه الآخر الذى يعارضه، وهو اتجاه الايمان بالله ، من واقع المجتمع ، اى مجتمع فى اى وقت وفى اى مكان .

وهذا القصد هو الذى يعنيه الشق الثانى من الآية السابقة : « وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون » . اى أن مصير اثارتهم للفتن والفساد سيلحق بهم وحدهم فى النهاية . ولانهم فى اتجاههم المادى يقعون تحت زينة الحياة الدنيا ومتعها وحدها ، فهم لا يرون فى سلوكهم وفى السعى لتحقيق انانيتهم وشهواتهم النهاية لهم ، ولا يتصورون : ان العاقبة تدور عليهم وحدهم .

ورد القرآن بذلك هو من الله الذى يتجه اليه المومن بايمانه وعبادته . ومعنى رده هنا اذن : أن الايمان بالله لا يضار من اصحاب الاتجاه المادى فى الحياة ، مهما اثاروها فتنة وفسادا ، وان المومنين كذلك لا يبادون كلية من اى مجتمع بشرى قائم بفعل الزعماء والاكابر لذاك الاتجاه المادى .

والحقيقة التى لا مرية فيها هى : اختلاف المجتمع البشرى اى مجتمع فى اى مستوى وفى اى وقت — وانقسامه الى : اصحاب اليمين واصحاب الشمال — الى المومنين بالله والكافرين به .. الى أصحاب الروحية فى الاتجاه واصحاب المادية فيه :

« ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ،

« ولا يزالون مختلفين .

« الا من رحم ربك ،

« ولذلك خلقهم ،

« وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين » هود / 119 .

.. وهاتان الآيتان تقرران معا : حقيقتين :

الحقيقة الاولى : انه باستطاعة الله ان يجعل الناس جميعا امة واحدة ، ومجتمعا واحدا صاحب اتجاه واحد ، ولو شاء لفعل ذلك .

والحقيقة الثانية : ان اختلاف الناس فى مجتمعاتهم الى اصحاب الايمان بالله او اصحاب الروحية فى جانب ، واصحاب الاتجاه المادى والشرك فى الحياة فى جانب آخر ، امر ضرورى قضت به حكمة الخلق للناس انفسهم : « ولذلك خلقهم » واقتضته ايضا ارادة الله فيما وعد به من ملء جهنم من اصحاب الاتجاه المادى فى الحياة والشرك بالله ، سواء من الجن ومن الانس معا : « وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين » .

فاقتضاء حكمة الله فى خلقه : ان لا يكون الناس سواء فى الاتجاه فى الحياة ، وانهم لا يزالون مختلفين فى هذا الاتجاه : « ولا يزالون مختلفين » الى أن تنتهى رسالة الانسان فى هذه الحياة الدنيا — وهى رسالة الابتلاء من جانب : ورسالة الحق مع الباطل من جانب آخر — ويوجب اذن وجود الايمان بالله فى صورة ما ، ووجود الاتجاه المادى فى صورة ما ، فى كل مجتمع بشرى مضى او آت .

وارادة الله التى تتمثل فى اختلاف الناس فى المجتمع البشرى فى اتجاههم فى الحياة بين مثالى ومادى ، او بين مؤمن ومشرك وكافر ، هى قانون الطبيعة البشرية الذى يحكم طبائع الافراد والمجتمعات معا . فتفاوت الافراد فى مستوى الادراك ، وتفاوتهم فى التاثر بالبيئات وبالعبادات والاعراف ، وتفاوتهم فى درجة التطور والنضوج .. يجعل منهم أفرادا مختلفين ، ويجعل من مجتمعهم مجتمعا موزعا فى الاتجاه .

وطبقا لهذا القانون البشرى ليس هناك

بأس فى المجتمع اذ اشتد ظلام المادية ، واحكم اتجاهها ، واغلقت نوافذ الهداية وحطم مصباحها.

وطبقا لهذا القانون ايضا لا تنبغى المبالغة فى التفاؤل والاطمئنان ، اذ اتسعت رقعة الايمان وزاد عدد المؤمنين فى الارض او احرزوا النصر يوما ما . فبهذه المبالغة فى التفاؤل والاطمئنان قد يتسرب منها نشاط الاتجاه المادى ويفسد على الايمان ما تقاول به اصحابه ، ويسبب له فى لحظة اخرى خيبة امل .

وهنا : النصر والهزيمة سنة الحياة . والاختلاف فى الاتجاه من طبيعة هذه الحياة . وعدم فناء او زوال اى اتجاه من اتجاهى الحياة قانون الحياة الارضية نفسها . وعدم اليأس عند شدة الظلام ، وعدم المبالغة فى التفاؤل عند وضوح النهار من مستلزمات الوجود الانسانى والخروج فى الاحساس او فى السلوك عما هو لطبيعة الحياة هنا هو اصطدام مع الطبيعة نفسها ، فيه القضاء على من يسعى الى الاصطدام .

* * *

وعن المرحلة الثانية — وهى مرحلة انتشار الاتجاه المادى فى حياة الافراد — فان الامر فيها ينتقل من وجود الاتجاه المادى فى الحياة وفاعليته الى نشاطه الواسع ، وغلبته او سيطرته على حياة المجتمع .

وامارة التوسع فى نشاط الاتجاه المادى تبدو مرة :

1 — فى سلوك الافراد ، وبالاخص اولئكم الذين اترفوا فى الحياة . فهؤلاء لا يحول بينهم وبين الاستماع بما اترفوا فيه اى حائل . وبذلك يظلمون انفسهم ويظلمون غيرهم .

.. يظلمون انفسهم لانهم يتبعون شهواتهم فى غير حدود ، ويحولون بذلك المتعة الى سوء يعود على صحتهم وعلى روابطهم فى الاسرة والمجتمع ويظلمون غيرهم ، لان مجاوزتهم كل حد فى الاستماع بما حصلوه من نعم وترف يسبب حرمانا للاخرين الذين اصبحت لهم حاجة ماسة الى بعض ما فى ايديهم .

وتصور الآية القرآنية الاتية هذه الامارة فيما تقوله :

« واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه ،

« وكانوا مجرمين » هود / 116 .

.. فوصفت اصحاب الاتجاه المادى حينئذ :

ا) بانهم اتبعوا ما اترفوا فيه فاصبحوا منطلقين فى التبعية ، ينجذبون نحو المتع الحسية وحدها ، وليست لهم فى انفسهم اية ارادة تجعلهم لا ينجرفون وراء هذه التبعية .

ب) وبانهم ارتكبوا الظلم بذلك ولانفسهم قبل غيرهم .

ج) وبأن تبعيتهم لما اترفوا فيه وظلمهم لانفسهم وبغيرهم دفعهم الى الجرائم الاجتماعية من ارتكاب الفحشاء والفسوق والعصيان ، واصبحوا بذلك مجرمين . واصبح مجتمعهم مجتمع جرائم ، يقل فيه اصحاب الفضل الذين ينهون عن الفساد فى الارض .

وفيما آل اليه امر المجتمع عندئذ تقول الآية الاخرى :

« فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد فى الارض ،

« الا قليلا ممن انجينا منهم » هود / 116 .

.. اى ان الفساد استشرى عندئذ لسبب سلوك هؤلاء الماديين بحيث ، لا تقاومه تلك القلة القليلة التى انجيت وانقذت من طغيان الاتجاه المادى وموجته العارمة فى المجتمع . فقلتها تجعلها ضعيفة فى مواجهة الفساد والجرائم الاجتماعية ، واصبح تغيير المجتمع امرا لا مفر منه .

والامر : عند ما يتبع المترفون ترفهم يكون الظلم ، ويكون الاجرام والفساد . وحينئذ يكثر اصحاب الاتجاه المادى ، ويقل المؤمنون الذين من

شانهم ان ينهوا عن الفساد فى الارض · والمؤمنون القلة آنئذ حفظهم الله ورعاهم وانقذهم . والمجتمع القائم الآن مجتمع صاحب اتجاه مادى ، او مجتمع جرائم ، او مجتمع ظلم ، او مجتمع فساد وانطلاق فى الاستماع بالمتع الحسية الشهوية · وقد وصل الى النقطة التى لا بد ان ينحدر منها ويسقط .

2 — وتبدو — امارة التوسع فى نشاط الاتجاه المادى — مرة اخرى فى رفض النصيحة والاستمرار فى اتباع الظلم والاجرام ·

وفيما مضى — فى تاريخ البشرية — كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام تتوالى بالنصيحة للمترفين وزعماء الاتجاه المادى فى الحياة فى ان يوقفوا موجة الظلم والاجرام ، ويعودوا الى السلوك السوى المستقيم . وذلك عند ما تبلغ موجة الظلم والاجرام والفساد حدتها ، ويبلغ الاتجاه المادى فى الحياة مدى نشاطه وشدة طغيانه ·

ولكن الغرور والافتتان بزينة الدنيا ومتعها ، تحت تأثير هذا الاتجاه المادى ، يسد الآذان عن السماع ، ويعمى الابصار عن الرؤية ، ويغلق المنافذ الى القلب واعماق النفوس ، وتستجيب لنصيحة ناصح — ولو كان هو الرسول المؤيد من قبل الله — ولو كان هو من اهل الفضل والخيرة فى قومه ، ولو كان بعيدا عن الغرض الشخصى والزعامة والرياسة ، ولو كان فى سلوك المثل والقدوة للسلوك الانسانى الكريم ، الذى لم يدنسه الانحراف فى تيار الشهوات والمتع المادية ، والفساد ، والفحشاء ، والمنكر . ولو كان . .

ومن هنا كانت قضية رفض النصح ، عند سيطرة الاتجاه المادى على حياة المجتمع لا تخص ناصحا بشخصه ، ولا تقف عند عهد بعينه او عند مجتمع خاص من المجتمعات التى تنجرف فى اتجاه الظلم والاجرام ، تحت تأثير النزعة المادية والمتعة الحسية .

وقول الله تعالى : « وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها :

« انا وجدنا آباءنا على امة ، وانا على آثارهم مقتدون ·

« قال : او لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟

« قالوا : انا بما ارسلتم به كافرون » · الزخرف / 24 .

.. يصور هذه القضية فى رفض النصح من الماديين :

فالآية الاولى من هاتين الايتين — والقرآن يتجه بها الى الرسول عليه الصلاة والسلام — توضح عموم القضية ، وانها لا تختلف اطلاقا ، وان الرد على لسان المنذرين من المترفين كان ردا تقليديا، لم يصحبه مرة ما تأمل موضوعى ولا مراجعة ، الآثار المدمرة والمهلكة للمترفين ولمجتمعهم ، عندما تطغى موجة الانانية والاستهتار والفساد والاجرام . « وكذلك ما ارسلنا قبلك (قبل الرسول) من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا آباءنا على امة (على طريق معين) وانا على آثارهم مقتدون » .

اما الآية الثانية منهما فلاقامة الحجة عليهم ، وتوضيح انهم لا يتبعون الا ما اترفوا فيه ، ويرتكبون انواع الظلم والجرائم لانهم مقتدون باسلافهم فقط ، وانهم لم يحتكموا فى ذلك الى عقل ، ولا الى واقع تاريخى · اذ لو احتكموا الى منطق الانسان السليم لتجنبوا هذا الطريق المؤدى الى الدمار والهلاك ، واتبعوا هداية الرسول . ولو احتكموا الى الواقع التاريخى ، لارشدهم : الى ان عاقبة هذا الاتجاه المادى فى الحياة واحدة ومحتمة، وهى سقوط المجتمع ، وتوالى الويلات والمصائب على افراده · قال : « اولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا انا بما ارسلتم به كافرون » ·

والواقع التاريخى فى ماضيه يعيد نفسه فى يومه وفى غده · فالطبيعة الانسانية هى الطبيعة الانسانية ، لا تتبدل ولا تتغير فى خصائصها . والمجتمع البشرى هو المجتمع البشرى : فى احداثه،

وفى عوامل هذه الاحداث ، وفى نتائجها ·

وطالما الاتجاه المادى فى الحياة كان فى الامس البعيد والقريب فانه يظهر ايضا فى الغد القريب والغد البعيد · وطالما كانت نتائج الطغيان عن طريقه هى انهيار المجتمع وسقوطه ، فبهذه النتائج ذاتها متوقعة عند ما يظهر فى اى وقت فى كبريائه ، وعنجهيته ، وفساده ، ومنكراته ، وفحشائه ·

* * *

اما المرحلة الثالثة — وهى المرحلة التى تلى طغيان الاتجاه المادى فى حياة المجتمع — فهى مرحلة سقوط المجتمع ذاته . وسقوطه آنئذ يعد ضرورة اجتماعية لا سبيل الى تفاديها ·

وهنا القرآن الكريم يشكل هذا القانون الاجتماعى بنتائجه ومستلزماته ، وفى مقدماته ، فيما تنطق به هذه الآية الكريمة :

« واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ،

« فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » الاسراء / 16 ·

.. فارادة الله هى ذلك القانون الاجتماعى الذى لا تنفك نتائجه عن مقدماته بحال :

والمقدمات فى هذا القانون هى اتباع اصحاب الاتجاه المادى فى الحياة ما أترفوا فيه ، فالفسق والفجور والظلم والاجرام · فاذا تولى المترفون امر المجتمع زاد فسقهم واجرامهم وظلمهم .

اما النتائج الضرورية فى ارتباطها بهذه المقدمات فهى تدمير المجتمع وسقوطه ، ولا راد لذلك بحال : « فحق عليها القول » ·

وما جاء فى الآية الكريمة من « تأثير » المترفين وتوليهم الامر فى المجتمع فهو لتعجيل النتيجة المترتبة فقط . ولذا كان التعبير بـ « فاء » التعقيب: « امرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » ·

اما المبدأ .. اما القانون الحتمى فهو : سقوط المجتمع المادى عند ما تشتد فيه موجة الفساد والاجرام والظلم ، باسترسال المترفين فى ملذات الحياة ومتعها الحسية والمادية ·

واما : « متى » تقع النتائج ؟ — فان تولى المترفون مع فسقهم وطغيانهم شؤون المجتمع فيرتقب بين لحظة واخرى سقوط المجتمع وتدميره· وان لم يقولوا شؤونه فربما يحتاج الامر فى ترتب النتائج ووقوعها الى شىء من الوقت ، حتى تبلغ الموجة العاتية اشدها ، وحتى يصل الظلم والاجرام الى نقطة لا مفر من التغيير والسقوط بعدها · والمفهوم المخالف هذا القانون الاجتماعى هو : أن المجتمع اذا نأى بنفسه عن طغيان الاتجاه المادى ، واتبع هداية الله فى سلوك افراده ، واخضع العلاقات فيه الى « العدل » والتعاون والمحبة و « الاحسان » فانه باق لا يتغير ·

وقد صاغ مفهوم المخالفة هذا فى قانون مقابل ، آية اخرى ، هى :

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم ، واهلها مصلحون » هود / 117 ·

.. فالآية تنفى على وجه التأكيد ان يغير الله المجتمع ويدمره ، واهله مصلحون معمرون · واصلاح اهل المجتمع هو فى سلوكهم المسلك السوى ، ابتغاء وجه الله ·

واذن هناك قانونان يحتمان المجتمعات البشرية فى بقائها وسقوطها ، ونتائجهما ضرورية فى اللزوم والارتباط لوجود مقدماتهما · وتتمثل فى هذين القانونين ارادة الله جل شانه ·

وفيما تعبر عنه هذه الآية :

« ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين » يونس / 13 ·

وكذلك تلك الآية :

« ولقد ارسلنا من قبلك رسلا الى قومهم

فجاءوهم بالبينات ، فانتقمنا من الذين اجرموا ، وكان حقا علينا نصرُ المومنين » الروم / 47 ·

.. ما يؤكد مضمون القانون الاول ، وهو انهيار المجتمع الفاسد ، عند ما يبلغ فيه الفساد اوجه ، ويتحول النشاط لافراده نحو الاجرام والاستمتاع بالملذات :

فالآية الاولى تنص على ان المجتمعات فى ماضى التاريخ التى باشرت الظلم ورفضت هداية الرسل ، واستمرت فى عدوانها وفسادها وقع بها الهلاك والدمار · وعدوانها وفسادها بسبب طغيان الاتجاه المادى فى حياته · والدمار والهلاك لمثل هذه المجتمعات امر لا مفر منه : « وكذلك نجزى المجرمين » ·

والآية الثانية تعيد نفس المضمون · الا انها تضيف الى الانتقام من المجرمين كامر لا محيد عنه باستقاطهم وتدمير مجتمعهم : ان نصر المومنين امر ضرورى كذلك تكلفت به ارادة الله فى بقاء مجتمعهم: « وكان حقا علينا نصر المومنين » ·

والمجتمع الانسانى ــ اى مجتمع انساني ــ هو فى وجوده فى وضع اختيار ، وفى فترة ابتلاء فى حقيقة امره : اما الى بقاء ، او الى سقوط وفناء من جديد : « ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم ، لننظر : كيف تعملون ؟ » يونس / 14 وفيه موجود على سبيل الحقيقة ايضا : ما يدفع به نحو البقاء ، وهو هداية الله ، وما يدفع به الى السقوط ، وهو الاتجاه المادى فى الحياة .

وليست هناك حاجة الى مزيد فى تاكيد هذا الشان للمجتمع البشرى · وعلى من يشك او تكون عنده بقية من ريب فى تحديد مصير المجتمع نحو اى من النتيجتين عليه ان يراجع التاريخ ، ويعيش فى آثار الماضى قليلا فيبدو له الشان واضحا لم يتخلف عنه مجتمع ما مهما كان وضعه ومهما كانت ظروفه :

« اولم يسيروا فى الارض فينظروا : كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟

« كانوا اشد منهم قوة ، واثاروا الارض . وعمروها اكثر مما عمروها ،

« وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا انفسهم يظلمون ،

« ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوآى : ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » الروم 6 و 10 ·

.. فمجتمع الرومان فى الشرق الاوسط ، ومجتمع الفرس فيما وراء النهرين كانا من المجتمعات البشرية الشامخة فى قوتها وفى عمرانها، وفى انتاجها ، وفى حضارتها على العموم · ومع ذلك لم تغن عنها · هذه القوة ولا هذه الحضارة فى السقوط والانهيار بعد أن استمر كل منهما فى طغيان الاتجاه المادى ، فكان الظلم ، وكان الفساد، وكان الانهماك فى الملذات وكانت ولاية المترفين ورياستهم ، ولم يستمع اى مجتمع منهما لهداية الله ونداء رسالته : « كانوا اشد منهم قوة ، واثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها .. ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوآى ، ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون » ·

واى مجتمع قبل مجتمع الرومان والفرس لم يتخلف عن « ارادة الله » الحكيمة :

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وانشانا بعدها قوما آخرين » الانبياء / 11 ·

.. فهناك مجتمعات عديدة صغيرة وكبيرة ،، عبر التاريخ لم تشذ اطلاقا عن ذلك القانون الالهى · وهو قانون الطبيعة البشرية والمجتمع البشرى ، وهو قانون نافذ آمن به البعض ام كفر.

والقرار للزعماء من النتيجة الحتمية التى تنتظر المجتمع الذى وقع تحت تأثير الاتجاه المادى فى الحياة : فظلم ، وافسد ، وعبث ، واستدبر المشورة والهداية ، واستكبر رؤساؤه وزعماؤه ، واستهزءوا بالمومنين ، وبرسالة الله .. الفرار من الانهيار والسقوط الحتمى لا ينجى احدا ممن

يفر من العابثين والمفسدين · بل ستلقه ان عاجلا او آجلا آثار سلوكه ، وهو سلوك الظالم المفسد ، الذى كفر بنعمة الله عليه ، وهى نعمة الرزق والجاه والمسؤولية ·

« فلما احسوا بأسنا اذا هم منها يركضون·

« لا تركضوا وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ؟

« قالوا : يا ويلنا : انا كنا ظالمين ·

« فما زالت تلك دعواهم حى جعلناهم حصيدا خامدين » الانبياء / 12 — 14 ·

.. فهذه الآيات تصور : ان محاولات الهرب من النتائج الحتمية ، او محاولات التراجع بعد ان يبلغ الظلم وفساد المترفين من اصحاب الشأن فى المجتمع قمته .. لا تجدى نفعا ولا تحول دون انزال العقوبة بالظالمين والمفسدين ، وفى مقدمتهم الزعماء والرؤساء ·

فمحاولات الهرب من هذه النتائج يشير اليها قوله تعالى هنا : « فلما احسوا بأسنا اذا هم منها يركضون » · ويصور عدم نجاح هذه المحاولة توله جل شأنه بعد ذلك : « لا تركضوا ، وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم ، لعلكم تسألون » · اى يستوى هربكم من النتيجة الحتمية وعودتكم بعد خروجكم الى وضعكم السابق فى مجتمعكم : فيما كنتم فيه من ترف ، وفيما أقمتم فيه من مساكن ، وفيما كنتم فيه من وضع المسؤول ، وهو وضع الرؤساء والزعماء ، حتى ياتيكم العذاب ·

ومحاولات التراجع بالاعتراف بالذنب تذكرها الآية الكريمة فيما تقول : « قالوا : يا ويلنا ؛ انا كنا ظالمين ؛ فما زالت تلك دعواهم ، حتى جعلناهم حصيدا خامدين » · فاعترافهم بانهم كانوا ظالمين ، وترديدهم هذا الاعتراف عدة مرات ، حتى نالهم جزاؤهم لم يحل دون هذا الجزاء واللحاق بهم ·

وما تحكيه الآيات هنا من محاولات الفرار والهرب ، أو محاولات التراجع والندم ، قد يقع أيضا · وعندئذ يكون القصر هنا هو الزيادة فى تأكيد نتائج الفساد وطغيان اتجاه المادية فى حياة المجتمع، على المجتمع نفسه وعلى افراده ، ينفى ما قد يتعلق ببعض خيالات النفوس وتصوراتها ، من ان الفرار من اسباب الموت قد ينجى منه ، أو ان الهرب من نتائج الجرائم قد يحول دون وقوع عقوباتها على من ارتكب الجريمة ·

* * *

وتاريخ المجتمع البشرى فى ماضيه يعيد نفسه فى حاضره وفى غده .. واحداثه المتشابهة تستتبع نتائج متشابهة كذلك · ولا دخل للتقدم العلمى أو التقدم التكنولوجى — وكذلك لا دخل للبدائية والتخلف — فى الترابط بين الاحداث والنتائج ، وتلازم الوقوع بين الاحداث ونتائجها فى اى وقت يمر بالانسان وبالمجتمع الانسانى ·

ان الاحداث المتشابهة تستتبع نتائج متشابهة ، لانها احداث الطبيعة البشرية المحدودة الخصائص والوظائف · اما التقدم العلمى او التخلف فيه فانه لا يغير خصائص الطبيعة البشرية وبالتالى لا يغير وظائفها الاساسية · وانما يغير الوسائل التى يستخدمها الانسان فى حياته : فى تحصيل الرزق ، وفى الاقامة ، وفى التنقل ، وفى الاستمتاع ودفع المشقة فى كل ما يسعى فيه الانسان ·

كذلك تقدم العلم — او التكنولوجيا — لا يستلزم تقدم الانسانية فى سلوك الانسان · لان التقدم فى السلوك الانسانى يرجع اولا واخيرا الى تقلص مجال الانانية واتساع المجال الجماعى فى تفكير الانسان ، وفعله ، وسلوكه على السواء ·

تقدم العلم قد يساعد على تحكم الانانية · وتقدم التكنولوجيا قد يساعد على الانحراف فى استغلال الطاقات المهنية للانسان · واحداث العالم اليوم واحتكاك الشعوب بعضها ضد بعض هى احدى نتائج الانانية فى المجتمعات ذات التقدم العلمى

والصنـــاعى ·

واذن ليس هناك ما يحـــول اطلاقـــا دون استتباع الاحداث لنتائج معينـــة فى المجتمعـــات الانسانية الحاضرة والمستقبلة ، على غرار الاحداث والنتائج التى وقعت فى امس هذه المجتمعات ·

والقوانين الاجتماعية ــ او الترابط بيـــن الاحداث والنتائج ــ هى اذن من الحقائق الضرورية وربما يساعد تقدم العلم او التقدم الصناعى فقط فى هول الاحداث ونتائجها ان وقعت اليوم ، زيادة عنها عند وقوعها فى الماضى ·

فالاتجاه المادى فى الحياة ان كان من الممكن أن يتحرك الى « الطغيان المادى » اليوم فى اى مجتمع معاصر فان مستوى الطغيان وآثاره عند ما تقع لا تقارن بالآثار وبالمستوى الذى وقع فـــى القرون والمجتمعات السابقـــة · بفضـــل التقـــدم الصناعى فى الابـــداع والخلـــق لوسائـــل جديـــدة يستخدمها صاحب الاتجاه المادى المعاصر فى الظلم· والفســـاد ، واتبـــاع التـــرف ، والاستمتـــاع بالملذات ، وكذلك فى الاستهزاء بآيات الله وبهدايته، وفى السخرية من المؤمنين او الضعفاء ·

والطغيان كذلك بفعل الاتجاه المادى عند ما يتحرك فى اى مجتمع معاصر اليوم لا يسبب سقوطا عاديا للمجتمع الذى يطغى او يظلم او يباشر الفساد والعبث · وانما نوع السقوط والانهيار للمجتمـــع المعاصر فى وصوله الى قمة الطغيان سيكون شديد العنف ، بحيث لا يشبهه على الاطلاق ما تم فى مجتمع سابق بالامس :

وسائل المتعة اليوم كثيرة وعديدة ·

ووسائل الظلم والفســـاد ، والاكـــراه ، والضغط ليست عديدة فقط وانما هى فظيعة فـــى آثارها وفى بعدها عن كل شائبة للانسانية ·

ووسائل التدمير والتخريب ، والدمـــار ، رهيبة لا توصف رهبتها وشناعة نتائجها ·

.. كل ذلك بفضل تقدم العلـــم ، والتقدم الصناعى · واذن الذى يتغير اليوم فى المجتمعات الانسانية المعاصرة ليس هـــو تـــلازم الاحـــداث لنتائجها ــ اى تلازم الطغيـــان والظلـــم والفساد والعبث والمبالغة فى الترف لسقوط المجتمع ــ وانما « النوعية » و « المستوى » سواء اكانت نوعيـــة الاحداث ومستوياتهـــا ، أم نوعيـــة النتـــائـــج ومستويـــاتهـــا ·

وكتاب الله عند ما يبلور ارادة الله فيمـــا يمكن ان يعبر عنه بقانون المجتمع ، لم يتعرض الى نوعية الاحداث والنتائج ولا الى مستواها · وانمـــا فحسب ذكر « الترابط » بين :

ــ الاتجاه المادى فى الحياة وآثاره ·

والاتجاه الانسانى او الروحى او الايمانى بالله وآثاره ايضا ·

.. ذكر الترابط بين :

الشرك ، والطغيان ، والجرائم الاجتماعية ، والظلم وسوء استغلال نعمة الله مـــن جهـــة ، وضرورة سقوط مجتمع المشركين الماديين الطغاة ، الظالمين ، والعابثين والمفسدين من جهة اخرى .

.. وذكر الترابط كذلك :

بين الايمان بوحدة الله فى الوهيته ، واتباع هدايته ، وعدم المبالغة فى الاستماع بالمتعة الحسية، وسلوك طريق العدل والاحسان من جهة، والنصر او البقاء ولافراده المومنين من جهة اخرى .

وما وراء هذا الترابط فى مستوى الاحداث ونتائجها فهو متروك للظروف التى يعيش فيهـــا المجتمع ، والامكانيات فى الوسائل ونوعها التـــى يستخدمها الانسان فى حياته ·

والحقائق الثلاث التى لا ريب فيها اطلاقا ، والتى هى مرتبطة بطبيعة الانسان وطبيعة مجتمعه فى كل وقت ومكان ، هى :

1 ــ ان الاتجاه المادى فى الحياة يعيش داخل الفرد والمجتمع معا ·

2 ــ ان هذا الاتجاه قابل للانتشار والتوسع

والسيطرة على حياة المجتمع ·

3 ــ وانه اذا سيطر هذا الاتجاه على حياة المجتمع فأصبحت حياة طغيان وظلم وفساد ، وشرك ، فسقوط المجتمع ضرورة لا مفر منها ·

اما ما بقى على المجتمع ·

اما ما يحفظ على علاقات الافراد فيه الود والصفاء ، والتآلف ، اما ما يقيه شرور اعدائه واعتداءاتهم ·

اما ما يجعله فى نصر دائما ، وفى قوة دائما، وفى عزة دائما ·

.. فهذا الايمان بالله وحده ·

« وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ·

« وكنا نحن الوارثين ·

« وما كان ربك مهلكى القرى حتى يبعث فى امها رسولا ، يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلك القرى الا واهلها ظالمون » ·

« وما اوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وابقى افلا تعقلون ؟

« افمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه ·

« كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين » القصص / 57 ــ 61 ·

* * *

ان المجتمعات المعاصرة ــ ان فى الشرق او فى الغرب ــ هى مجتمعات مادية ، وجود الله فى حياتها وجود خداع او وجود عدم · يسيطر الاتجاه المادى فى الحياة على كل جوانب هذه الحياة منها ·

ولانها مجتمعات مادية هى فى صراع غير منقطع · وفى صراع بعضها ضد بعض تعيش جميعها فى قلق ورهبة ، واعداد ليوم « الفضل » على هذه الارض وحدها · وما تعده ليوم الفضل هو لتدمير البشرية فى لحظات ، وفى الوقت نفسه على حساب حياة العشرات من ملايين الناس كل يوم ·

وهذه المجتمعات المادية فى تقدمها العلمى والتكنولوجى تخدم غرضا واحدا ، هو غرض الصراع .. هو غرض الارهاب فالفناء · وفى الوقت نفسه موجات الظلم والفساد ، والانحلال ، والسخرية بدين الله ، والتنديد بالضعفاء ، والاعتزاز بالقوة المادية وحدها تعد من الظواهر الواضحة لاتجاه هذه المجتمعات ·

فاذا انتهى امرها الى السقوط والى التقييد فسيكون سقوطها غير متصور فى آثاره ونتائجه على البشرية كلها ، وليس على افراد مجتمعات الشرق او مجتمعات الغرب ·

اليس الصراع بين هذه المجتمعات هو نذير سقوطها وتغيرها .. ؟

اليست الحرب الثالثة امرا حتميا للتعبير عن تغييرها .. ؟

اليست المجتمعات القادمة هى مجتمعات ايمان بالله وبالمثل الانسانية ، وليست مجتمعات طغيان بالقوة ، والحاد بالله ، ان كانت للحياة الدنيوية بقية اخرى فى تقدير الله .. ؟

تلك هى طبيعة المجتمعات تنبثق عن ارادة الله وحده ·

ركن التشريع

ج . ر . عدد 3252 ــ 14 صفر 1395 (26 فبراير 1975) ص . 719

ظهير شريف بمثابة قانون رقم 1·75·102 بتاريخ 13 صفر 1395 (25 فبراير 1975) يتعلق بتنظيم الجامعات ·

الحمد لله وحده

الطابع الشريف ــ بداخله :

(الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن الله وليه)

يعلم من ظهيرنا الشريف هذا اسماه الله واعز امره اننـــا :

بناء على الفصل 102 من الدستور ·

اصدرنا امرنا الشريف بما يلى :

الجـــزء الاول

الجـــامعـــة

البـــاب الاول

مهمة الجامعة واحداثها

الفصـــل 1

تناط بالجامعات مهمة تلقين التعليم العالى والقيام بالبحث العلمى وتكوين الاطارات والمساهمة فى نشر المعرفة والثقافة ·

الفصـــل 2

تكون الجامعات مؤسسات عمومية تتمتـــع بالشخصية المعنوية والاستقلال المالى ، حسبمـــا هما محددان فى ظهيرنا الشريف هذا ·

وتوضع تحت وصاية السلطة الحكوميـــة المكلفة بالتعليم العالى ·

الفصـــل 3

تشتمـــل كل جامعة بالاضافة الى المصالح المشتركة للرئاسة على مؤسسات جامعية اى كليات ومدارس ومعاهد مختصة تستجيب لحاجات البحث الخـــاصـــة ·

ويمكن فيما يخص كل كلية احداث مراكز للدراسات خارج المقر الرئيسى حسب حاجيـــات التعليم والبحث ·

الفصـــل 4

تحدث الجامعات بموجب القانون · وتحدث المؤسسات الجامعيـــة بمرسوم يتخذ باقتراح من السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ، كمـــا تحدث مراكز الدراسات بقرار للسلطة الحكوميـــة المكلفة بالتعليم العالى ·

وتحدد كيفيات احداث الاحيـــاء الجامعيـــة وتعيين مواقعها وتدبير شؤونها وتسييرها بمرسوم يتخذ باقتراح من السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العـــالـــى ·

الفصـــل 5

يسير الجامعة رئيس وتتوفر على مجلس ·

البـــاب الثـــانـــى

رئيس الجامعـــة

الفصـــل 6

يشرف على كل جامعة رئيس يعين بظهير شريف يختار من بين اساتذة الجامعة باقتراح من

السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ·

ويتولى الرئيس تنفيذ مقررات السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى فى ميدانى التعليم والبحث العلمى ·

وينسق اعمال المؤسسات الجامعية باتصال مع مجلس الجامعة ·

الفصل 7

يقوم الرئيس أو يأذن فى القيام بجميع الاعمال او العمليات المتعلقة بالجامعة ويعمل باسمها · ويمثل الجامعة ازاء الغير ويقوم بجميع الاعمال التحفظية · ويؤهل لتمثيلها امام المحاكم ·

ويقبل الهبات والوصايا المقدمة لفائدة الجامعة التى لا تترتب عنها تحملات او تقيدها شروط او بيانات عقارية والتى لا نثير اى تعرض من لدن عائلة الواهب · وفيما يتعلق بهبة او وصية تترتب عنها تحملات او تقيدها شروط او بيانات عقارية او تقدم بشأنها شكايات من لدن العائلات، فان قبولها او رفضها يثبت بقرار مشترك لوزير المالية والسلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ·

الفصل 8

يقوم الرئيس بتدبير شؤون مصالح الرئاسة والمصالح المشتركة للجامعة التى يشرف عليها · ويساعده فى تسيير شؤون الرئاسة كاتب عام وموظفون اداريون ·

الفصل 9

تشتمل رئاسة كل جامعة بالاضافة الى الكتابة العامة على مصالح يحدد عددها واختصاصاتها بقرار تتخذه السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى باقتراح من الرئيس ·

الفصل 10

يعين الكاتب العام للجامعة بقرار للسلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى من بين الموظفين المرتبين على الاقل فى سلم الرواتب رقم 10 المنصوص عليه فى المرسوم رقم 2·73·722 الصادر فى 10 ذى الحجة 1393 (31 دجنبر 1973) بتحديد سلالم ترتيب موظفى الدولة وتسلسل المناصب العليا بالادارات العمومية ·

الباب الثالث

التسيير المالى للجامعة

الفصل 11

توضع مقدرات ميزانية الجامعة لمدة سنة واحدة تبتدىء من فاتح يناير وتنتهى فى 31 دجنبر· وتشتمل على قسم يتعلق بالمداخيل والنفقات الخاصة بالمصالح المشتركة التابعة للرئاسة وعلى عدد من الاقسام يساوى عدد المؤسسات الجامعية·

ويتضمن كل قسم المداخيل والنفقات الخاصة بالمصالح المشتركة او المؤسسات الجامعية باستثناء النفقات التى تبقى ملقاة على كاهل الوزارة المعهود اليها بالوصاية والتى تحدد بقرار مشترك لوزير المالية والسلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى.

الفصل 12

يتولى رئيس الجامعة وضع مقدرات الميزانية المتعلقة بالمصالح المشتركة التابعة للجامعة ·

اما مقدرات الميزانية الخاصة بكل مؤسسة جامعية فيضعها رئيس المؤسسة الذى يعرضها على نظر مجلس المؤسسة ·

وتقدم جميع هذه المقدرات من طرف الرئيس الى مجلس الجامعة قبل 30 يونيه لابداء رايه فيها ثم تعرض على نظر الوزير المعهود اليه بالوصاية الذى يقدمها الى وزير المالية للمصادقة عليها ·

الفصل 13

رئيس الجامعة هو الآمر بدفع الاعتمادات من القسم المتعلق بنفقات ومداخيل المصالح المشتركة التابعة لرئاسة الجامعة ويكون كل رئيس مؤسسة جامعية هو الآمر بدفع الاعتمادات من القسم الخاص بالمؤسسة التى يسيرها ·

وتحدد بقرار لوزير المالية الشروط المالية والحسابية التى تنجز بها النفقات والمداخيل المتعلقة بالمؤسسة المذكورة ·

وتجرى على الجامعة والمؤسسات الجامعية المراقبة المالية المنصوص عليها فى الظهير الشريف الصادر فى 17 شوال 1379 (14 ابريل 1960) بتنظيم مراقبة الدولة المالية على المكاتب والمؤسسات العمومية والشركات ذات الامتياز وعلى الشركات

والمنظمات المستفيدة من المساعدة المالية التى تقدمها الدولة او الجماعات المحلية ·

الفصل 14

تؤهل المؤسسات الجامعية لاستخلاص الواجبات المطابقة للخدمات التى تقدمها المؤسسات المذكورة ولا سيما منها واجبات التسجيل المحددة لائحتها ومبالغها بمرسوم يتخذ باقتراح كل من وزير المالية والسلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ·

الباب الرابع

مجلس الجامعة

الفصل 15

يحدث لدى كل جامعة مجلس يدعى « مجلس الجامعة » ·

الفصل 16

يتالف مجلس الجامعة من :

اعضاء بحكم القانون هم :

رئيس الجامعة ·

عمداء الكليات ومديرى المدارس ·

مديرو المعاهد المختصة ·

نواب عمداء الكليات ومساعدوا مديرى المدارس ·

اعضاء منتخبين هم :

استاذ بالتعليم العالى واستاذ محاضر واستاذ مساعد ومساعد عن كل مؤسسة ينتخبهم لمدة سنتين زملاؤهم من نفس السلك ·

طالبان عن كل مؤسسة ينتخبهما طلبة المؤسسة المقصودة لمدة سنتين ·

اعضاء معينين هم :

ثمانية اعضاء تعينهم السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى بعد استشارة رئيس الجامعة من بين الشخصيات التى تهم بالتعليم العالى او التى تضطلع بمسؤوليات جسيمة فى مختلف قطاعات الاقتصاد الوطنى ·

ممثل تعينه السلطة الحكومية المكلفة بالتخطيط ·

ممثل تعينه السلطة الحكومية المكلفة بتكوين الاطارات ·

وكل عضو من اعضاء مجلس الجامعة فقد الصفة التى انتخب او عين من اجلها لا يبقى منتميا لهذا المجلس ·

ويقوم الكاتب العام للجامعة بمهام كتابة المجلس ·

الفصل 17

تناط بمجلس الجامعة المهام الآتية :

1 ــ القيام بالدراسات الرامية الى تحسين مستوى التعليم والتوفيق بينه وبين حاجات البلاد والى تحسين التربية واساليبها وتنمية البحث العلمى ·

2 ــ ابداء الراى فى برامج التعليم والبحث المعروضة على نظره ·

3 ــ ابداء الراى فى مقدرات الميزانية الخاصة بالجامعة · ويقدم المجلس بعد ذلك اقتراحات يرفعها رئيس الجامعة الى السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ·

4 ــ ابداء الراى فى التعيين بناء على الشهادات وفى ترسيم جميع رجال التعليم الباحثين الذين تقترحهم اللجنة العلمية بكل مؤسسة ·

5 ــ ابداء الراى فى ترقى رجال التعليم المذكورين باقتراح من نفس اللجنة على ان يستثنى من ذلك رجال التعليم الباحثون المدعوون لممارسة مهام ادارية او اية مأمورية اخرى لدى المصلحة المركزية لوزارتى التعليم العالى والصحة العمومية.

6 ــ يجتمع المجلس فيما يخص جميع رجال التعليم الباحثين فى شكل مجلس تأديبى طبق الكيفيات والشروط المحددة بمرسوم ·

ويجتمع مجلس الجامعة فى نطاق ممارسة

المهام المشار اليها فى الفقرات 4 و 5 و 6 اعلاه دون حضور ممثلى الطلبة والاعضاء المعينين · ويغير تاليف المجلس فى نطاق ممارسة نفس المهام بكيفية لا يمكن معها لاى موظف من درجة معينة تقديم اقتراح بشأن موظف اعلى منه فى الدرجة التسلسلية· وكيفما كان الحال · فان الموظفين المعروضة وضعيتهم على نظر المجلس لا يجوز لهم ان يشاركوا فى المداولات · ويتولى مجلس الجامعة اعداد النظام الداخلى للجامعة الذى يعرضه الرئيس على مصادقة السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ·

الفصل 18

يجوز لمجلس الجامعة بعد موافقة السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى اقرار علاقات تعاون مع جامعات او منظمات اخرى تهتم بالتعليم والبحث ·

الفصل 19

يتولى رئيس الجامعة رئاسة مجلس الجامعة · واذا تغيب او عاقه عائق ، قام بمهامه عميد تعينه السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى·

الفصل 20

يجتمع مجلس الجامعة باستدعاء من رئيسه مرتين فى السنة على الاقل وكلما دعت الظروف الى ذلك ·

ولا يمكن ان يتداول المجلس بكيفية صحيحة على اثر الاستدعاء الاول بحضور اكثر من نصف اعضائه · واذا تعذر الحصول على هذا النصاب امكن عقد اجتماع ثان بكيفية صحيحة بعد مضى ثمانية ايام دون شرط توفر النصاب ·

وتتخذ مقررات مجلس الجامعة باغلبية الاعضاء الحاضرين · وعند تعادل الاصوات يرجح الجانب المنتمى اليه الرئيس ·

الجزء الثانى

المؤسسات الجامعية

الباب الاول

احداثها وتاليفها

الفصل 21

يشرف على المؤسسات الجامعية عميد او مدير وتتوفر على مجلس · وتتولى هذه المؤسسات تحضير الاجازات الوطنية الداخلة فى اختصاصاتها· ويوقع على هذه الاجازات رئيس المؤسسة ويؤشر عليها رئيس الجامعة · ويشرف على المعاهد المختصة مدير ويعهد اليها بانجاز اشغال البحث الداخلة فى اختصاصاتها ·

الفصل 22

تتالف المؤسسات الجامعية من قطاعات للتعليم والبحث تحدث بقرار تتخذه السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى بعد استشارة رئيس الجامعة وباقتراح من رئيس المؤسسة · غير ان احداث القطاعات التابعة لكليتى الطب والصيدلة يباشر بقرار مشترك للسلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ووزير الصحة العمومية ·

الفصل 23

تحدد اختصاصات القطاعات وكيفيات تسييرها بقرار للسلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ·

الباب الثانى

تسيير المؤسسات الجامعية

الفصل 24

يعين عمداء الكليات ومديرو المدارس ومديرو المعاهد بظهير شريف بناء على اقتراح من السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ·

ويختار عميد الكلية او مدير المدرسة من بين اساتذة التعليم العالى · كما يختار مدير المعهد من بين اساتذة التعليم العالى او الاساتذة المحاضرين او من بين الاشخاص ذوى الاهلية والكفاية فى

التكوين الجامعى ·

الفصـــل 25

يساعد عميد الكلية ومدير المدرسة على التوالى نائب للعميد ومساعد للمدير يعينان من بين اساتذة التعليم العالى او الاساتذة المحاضرين بقرار تصدره السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى باقتراح من المسؤول عن المؤسســـة بعـــد استشارة رئيس الجامعـــة ·

الفصـــل 26

يمارس رؤساء المؤسسات سلطتهم علـــى المصالح الادارية التابعة لمؤسساتهم والتى تشتمل بالاضافة الى كتابة عامة على مصالح يحدد عددها واختصاصاتها بقرار تصدره السلطـــة الحكوميـــة المكلفة بالتعليم العالى بعد استشارة رئيس الجامعة وباقتراح من رئيس المؤسسة ·

ويعين الكاتب العام بقرار للسلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى من بين الموظفين المرتبين على الاقل فى سلم الرواتب رقم 10 المنصوص عليه فى المرسوم رقم 2·73·722 الصادر فى 10 ذى الحجة 1393 (31 دجنبر 1973) بتحديد سلالم ترتيب موظفى الدولة وتسلسل المناصب العليا بالادارات العمـــوميـــة ·

البـــاب الثـــالث

مجلس المؤسسة

الفصـــل 27

يحدث لدى كل مؤسسة جامعيـــة مجلس للكلية او مجلس للمدرسة او مجلس للمعهد ·

الفصـــل 28

يتالف مجلس الكلية او المدرسة او المعهد من:

اعضاء بحكم القانون هم :

عميد الكلية او مدير المدرسة او المعهد بصفة رئيـــس ·

نائب عميد الكلية او مساعد مدير المدرسة ·

اساتذة التعليم العالى العاملون بالمؤسسة ·

اعضاء منتخبين هم :

رؤساء القطاعات ·

ثلاثة اساتذة محاضرين واستاذان مساعدان ومساعد ينتخبهم لمدة سنتين زملاؤهم مـــن نفس السلـــك ·

ثلاثة طلبة ينتخبهم طلبة المؤسسة لمدة سنتين

اعضاء معينين هم :

شخصان يهتمان بالتكوين الملقن فى المؤسسة يختارهما رئيس الجامعة لمدة سنتين باقتراح مـــن المسؤول عن المؤسسة ·

وكل عضو من اعضاء المجلس فقد الصفة التى انتخب او عين من اجلها لا يبقى منتميا للمجلس ويقوم الكاتب العام للمؤسسة بمهام كتابة المجلس.

الفصـــل 29

يدرس مجلس المؤسسة مقدرات الميزانيـــة المعروضة على نظره ·

وتعرض عليه لاجل الاستشارة جميع المسائل المتعلقة بما يلى :

تنظيم فروع التعليم والتربية ·

برامج التعليم والبحث ·

تسيير المؤسسة ·

وترفع اليه لهذا الغرض تقارير عن انشطة القطاعات ويؤهل لاقتراح جميع التدابير الكفيلـــة بالمساهمة فى تنمية الحيـــاة العلميـــة واشعاعهـــا بالمؤســـســـة ·

الفصـــل 30

يجتمع مجلس المؤسسة فى شكل مجلـــس تاديبى بالنسبة للطلبة طبـــق الشروط والكيفيـــات المحددة بمرسوم ·

الفصـــل 31

يجتمع مجلس المؤسسة ثلاث مرات فى السنة على الاقل باستدعاء من رئيسه ·

ولا يمكن ان يتداول المجلس بكيفية صحيحة على اثر الاستدعاء الاول الا بحضور اكثر من نصف اعضائه · واذا تعذر الحصول على هذا النصاب ، امكن عقد اجتماع ثان بكيفية صحيحة بعد مضى ثمانية ايام دون شرط توفر النصاب ·

وتتخذ مقررات مجلس المؤسسة باغلبية الاعضاء الحاضرين ·

وعند تعادل الاصوات يرجح الجانب المنتمى اليه الرئيس ·

الجـــزء الثـــالث

مقتضيات مختلفـــة وانتقاليـــة

الفصـــل 32

يحدد النظام الاساسى لرجال التعليم الباحثين والموظفين الاداريين والتقنيين فى الجامعات بموجب مرسوم ·

وتحدد بمرسوم كذلك برامج التعليم وانظمة الدروس والامتحانات ·

الفصـــل 33

تحدد كيفيات انتخاب اعضاء مجلس الجامعة ومجلس المؤسسة بقرار للسلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ·

الفصـــل 34

تلغى جميع المقتضيات المنافيـــة لظهيرنـــا الشريف هذا المعتبر بمثابة قانون ولا سيما الظهير الشريف رقم 1·58·390 الصادر فى 15 محـــرم 1379 (21 يوليوز 1959) باحداث جامعة الرباط وتنظيمها والظهير الشريف رقم 1·62·249 الصادر فى 12 رمضان 1382 (6 يبراير 1963) باعادة تنظيم جامعة القرويين ·

ويستمر العملُ بالنصوص المتعلقة بانظمـــة الدروس والامتحانات والصـــادرة تطبيقا للظهيـــر الشريف رقم 1.58.390 الصادر فى 15 محـــرم 1379 (21 يوليوز 1959) باحداث جامعة الرباط وتنظيمها والظهير الشريف رقم 1·62·249 الصادر فى 12 رمضان 1382 (6 يبراير 1963) باعادة تنظيم جامعة القرويين ·

الفصـــل 35

ينشر فى الجريدة الرسمية ظهيرنـــا الشريف هذا المعتبر بمثابة قانون ·

وحرر بفـــاس فى 13 صفـــر 1395 (25 يبراير 1975) ·

وقعه بالعطف :

الوزير الاول ·

الامضاء : احمد عصمان ·

* * *

ج · ر · عدد 3252 — 14 صفـــر 1395 (26 يبراير 1975) ص · 723

مرسوم رقم 2·75·149 بتاريخ 13 صفر 1395 (25 يبراير 1975) ·

بتحديد كيفيـــات تسيير الاحيـــاء الجامعيـــة وقواعد تدبير شؤونها ·

ان الوزير الاول :

بمقتضى الظهير الشريف رقـــم 1·75·102 الصادر فى 13 صفر 1395 (25 يبراير 1975) بمثابة قانون يتعلق بتنظيم الجامعـــات ولا سيمـــا الفصـــل 3 منه ·

وبناء على المرسوم الملكى رقـــم 330·66 الصادر فى 10 محرم 1387 (21 ابريل 1967) · بسن نظام عام للمحاسبة العموميـــة ولا سيمـــا الفصـــل 65 منه ·

وبنـــاء على المرسوم الملكـــى رقم 183·68

الصادر فى 5 جمادى الاولى 1388 (31 يوليوز 1968) بتحديد كيفيات تطبيق الفصل 65 من المرسوم الملكى رقم 330·66 الصادر فى 10 محرم 1387 (21 يوليوز 1967) بسن نظام عام للمحاسبة العمومية ·

وباقتراح من الوزير المكلف بالتعليم العالى·

وبعد دراسة المشروع فى المجلس الوزارى بتاريخ 3 ذى الحجة 1394 (17 دجنبر 1974) ·

يرسم ما يلى :

الباب الاول

مقتضيات عامة

الفصل 1

الاحياء الجامعية مؤسسات معدة لايواء الطلبة واطعامهم وضمان انشطتهم الاجتماعية الثقافية والرياضية ·

وتناط بها مهمة تزويد الطلبة الذين يتابعون عمليا دراساتهم العليا بالوسائل الكفيلة بمساعدتهم على حسن تنظيم حياتهم المادية واشغالهم الطلابية·

وتعتبر بمثابة مصالح تسير بصفة مستقلة حسب مدلول المرسوم الملكى رقم 183·68 الصادر فى 5 جمادي الاولى 1388 (31 يوليوز 1968) ·

ولا تعتبر الاحياء الجامعية مختلطة الا فيما يخص تناول الطعام ·

الفصل 2

تفتح الاحياء الجامعية فى وجه الطلبة المسجلين بصفة قانونية فى الكليات وكذا طلبة مدارس ومعاهد التعليم العالى غير المتوفرة على قسم داخلى ولا يمكن ان يقبل فيها الطلبة الذين يتابعون دراستهم ويشغلون فى آن واحد منصبا تؤدى عنه اجرة ·

الفصل 3

يتحمل الطلبة المقيمون كراء الغرف الذى تحدد مبلغه السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى ·

ويساهم الطلبة الذين يتناولون طعامهم بالاحياء الجامعية فى صوائر التغذية وفقا للتعريفة المحددة من طرف السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى .

الباب الثانى

ادارة الاحياء الجامعية وتسييرها

الفصل 4

يتوفر كل حى جامعى على لجنة للتسيير تتألف ممن يأتى :

رئيس الجامعة او ممثله بصفة رئيس ·

مدير الحى الجامعى ·

المون ·

المحاسب العمومى ·

المراقب المالى ·

المنشط المكلف بالانشطة الاجتماعية الثقافية والرياضية ·

طبيب الحى ·

ثمانية ممثلين للطلبة المقيمين ينتخبون لمدة سنة واحدة ·

الفصل 5

تعد لجنة التسيير النظام الداخلى للحى وتعرضه على مصادقة السلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى · وتسهر على تطبيق النظام الداخلى·

وتحرص على الاحوال الادبية والمادية لحياة المقيمين المستفيدين من خدمات الحى الجامعى .

وتجتمع بايعاز من الرئيس مرة واحدة على الاقل فى كل ثلاثة اشهر وكلما دعت الظروف الى ذلك .

الفصل 6

يعين مدير الحى بمرسوم · ويسير الحى الجامعى فى نطاق التوصيات الصادرة عن لجنة

التسيير .

ويمارس سلطته على جميع موظفى الحى .

ويمثل الحى فى اعمال الحياة المدنية .

ويسهر على النظام داخل الحى .

ويعتبر الامر بدفع اعتمادات ميزانية الحى .

ويختار من بين الموظفين المرتبين فى سلم الرواتب رقم 11 المنصوص عليه فى المرسوم رقم 73·722·2 الصادر فى 10 ذى الحجة 1393 (31 دجنبر 1973) بتحديد سلالم ترتيب موظفى الدولة وتسلسل المناصب العليا بالادارات العمومية .

الفصل 7

يكلف المون تحت سلطة المدير بسير المصالح الاقتصادية والتسيير المادى للحى الجامعى.

الفصل 8

يعهد الى المحاسب العمومى بعمليات المداخيل والنفقات الخاصة بالحى الجامعى .

الفصل 9

تجرى على العمليات الحسابية والمالية للحى الجامعى مقتضيات الانظمة المعمول بها .

الفصل 10

يعتبر المنشط الموضوع تحت سلطة المدير مسؤولا عن الانشطة الاجتماعية الثقافية والرياضية للحى الجامعى .

الفصل الثالث

العمليات الانتخابية ومقتضيات مختلفة

الفصل 11

تجرى العمليات الانتخابية داخل الحى خلال الثلاثة اشهر الاولى من السنة الجامعية .

وتتبع نفس الطريقة فى انتخاب الممثلين النواب ويعوض الممثلون المنتخبون بأعضاء نواب فى حالة شغور مقعد على اثر وفاة او استقالة او على اثر فقد الصفة التى يشاركون بها فى اعمال لجنة التسيير .

وتحدد كيفيات انتخاب ممثلى الطلبة المقيمين بقرار للسلطة الحكومية المكلفة بالتعليم العالى .

الفصل 12

يسند تنفيذ هذا المرسوم الذى ينشر بالجريدة الرسمية الى وزير التعليم العالى ووزير المالية كل واحد منهما فيما يخصه .

وحرر بالرباط فى 13 صفر 1395 (25 يبراير 1975) .

الوزير الاول :

الامضاء : احمد عصمان .

وقعه بالعطف :

وزير التعليم العالى .

الامضاء : عبد اللطيف بن عبد الجليل .

وزير المالية .

الامضاء : عبد القادر بنسليمان .

مجلة كلية الشريعة تجيب

يسرنا ان نسجل على صفحات مجلتنا (كلية الشريعة) رسالة وردت علينا من فضيلة العلامة الاستاذ السيد الحسن الزهراوى مع ملاحظاته الآتى نصها :

ونحن اذ نشكره نستلفت نظر فضيلته الى ما وقع من تحريف فى ملاحظاته فيما يخص الركن الاول والثانى حسبما يعلم من الجملة ص 10 و 11 فان المجلة تطلب من فضيلته ان يزودها بمقال فى موضوع اركان الدعوى وفق ما يراه عند ائمة الفقه اذ ما نشرناه حولها تحت عنوان (من اسرار التشريع الاسلامى) هو ما ارتاينا نقله فى الموضوع ونص الرسالة :

الحمد لله

30 ــ 11 ــ 1976

حضرة شيخنا المحترم العلامة المطلع عميد كلية الشريعة الاستاذ مولاى عبد الواحد العلوى ،

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته :

وبعد ، فأرجوكم ان تنشروا هذه الكلمة الموجزة التى ترد عليكم صحبته ولكم جزيل الشكر والخير اردت والسلام .

الزهراوى الحسن

ونص الملاحظة :

حول مجلة كلية الشريعة

طلع علينا العدد الاول من مجلة كلية الشريعة التى ملأت فراغا طالما شعر به ، لذا نامل من علماء المغرب عموما وعلماء جامعة القرويين خصوصا ان يمدوا يد المساعدة لمجلتهم ويشجعوها ماديا وادبيا .

واذا كان من التشجيع النقد البناء النزيه فانى ارى ان اتناول كلمة مدير المجلة شيخنا العلامة المطلع عميد كلية الشريعة الاستاذ مولاى عبد الواحد العلوى التى نشرها فى العدد الاول تحت عنوان (من اسرار التشريع الاسلامى) .

لقد تكلم استاذنا فى مقاله هذا على اركان الدعوى وعدها ثلاثة فقال : :

الركن الاول . مقال الادعاء . والجواب عنه . وما يتبع ذلك من التشريع .

الركن الثانى النصوص التى تنطبق على الواقعة .

الركن الثالث : الحكم فى عقدة النزاع بين الخصمين بما يجب شرعا .

هذه هى اركان الدعوى فى نظر استاذنا . ومقتضى ذلك ان الدعوى لا توجد الا اذا وجدت هذه الاركان الثلاثة ونحن نترك التعليق على ذلك للقارىء ليحكم بصحته او بطلانه ان ما ذكره شيخنا يعد شيئا جديدا فى تاريخ الفقه الاسلامى، وعميدنا اولى من يقوم بالتجديد فى الفقه الاسلامى لانه كان عضوا فى المجلس الاعلى للقضاء عدة سنين .

غير ان ما ذكره خارج عن الدعوى فلا هو من اوجهها الاربعة ولا من شروطها الخمسة ولا هو من مقوماتها مطلقا .

هذا ويحتمل ان يكون استاذنا اراد ان يتكلم على كيفية ابتداء الدعوى وسيرها الا انه خانه التعبير فعبر عن ذلك بالاركان ، غير انه حتى فى هذا الموضوع الاخير ترك فيه من الثغرات اكثر مما ذكر كما يعلم ذلك من تتبع النصوص الفقهية اذن فما ذكره استاذنا وعبر عنه بأركان الدعوى يبقى فى عهدته .

ونحن نطلب منه ان كان ناقلا فالصحة وان كان مدعيا فالدليل .

وسنعود الى الموضوع بتفصيل ان حدث ما يستوجب ذلك والسلام على شيخنا ورحمة الله تعالى وبركاته .

الزهراوى الحسن استاذ بكلية الدراسات العربية مراكش

مجلة كلية الشريعة

المديـــر :

عبد الواحد العلوى المدغرى

عميـــد كلية الشريعة

رئيـــس المجلس العلمى

التحريـــر :

الحاج ادريس سمـــيرس

عنوان المراسلة :

صندوق البريد رقم 1728

الأطلـــس ـــ فـــاس

ثمـــن العـــدد : 2،50 درهم

قيمـــة الاشتراك :

العـــادى : 24 درهما عن السنـــة

الشرفى : لا يقل عن الاشتراك العادى

تدفع قيمـــة الاشتـــراك فى اســـم علـــوى مدغرى عبد الواحد رقـــم الحساب البريـــدى 898.55 او بواسطـــة حوالـــة بعنـــوان عميد كلية الشريعة ، رئيس المجلس العلمى : علوى مدغرى عبد الواحد صندوق البريد 1728 الاطلس - فاس

ـــ المجلة غير ملزمة بـــرد المقالات لاصحابهـــا .

ـــ تبعث المقالات الى العنوان أعلاه

محتويات العدد

أ ـــ التهنئـــة 3

ب ـــ الافتتاحيـــة 4

ج ـــ تحية الى مجلة كلية الشريعة 6

دراســـات وابحـــاث فقهيـــة

1) **نظام الاسلام فى المال والاقتصاد** 7
الاستاذ الفاروق الرحالى عميد كلية اللغة العربية ـــ رئيس المجلس العلمى بمراكـــش

2) **جهود ملوكنا العلويين فى سبيل النهوض بالمغرب** 18
الاستاذ حدو امزيان عميد كلية اصول الدين ـــ رئيـــس المجلس العلمـــى بتطـــوان

3) **من اسرار التشريـــع الاسلامى (تابـــع)** 21
الاستاذ مولاى عبد الواحد العلوى المدغرى ـــ عميد كليـــة الشريعة ـــ رئيس المجلس العلمى بفـــاس

4) **مذهـــب الاســـلام فى التشريـــع** 28
الاستاذ النقيب الحاج عبد الكريم بن جلون التوبمـــى

5) **شخصية المراة فى كتـــاب الاســـلام** 35
الدكتور عائشة عبد الرحمن استاذة الدراسات القرآنية بدار الحديث الحسنية . استاذة التفسير بكلية الشريعة بفـــاس

6) **هدى الاســـلام فى القصد الى يسارة التكليـــف** 40
الاستـــاذ محمـــد المنونـــى

7) **معالم الخلود والاصالة والالتزام فى التشريـــع الاسلامى** 47
الاستاذ محمد بن ادريس العنبـــرى

شخصيـــات مغربيـــة

8) **ثالث ثلاثة فى الضبط والاتقان (تابـــع)** 50
الاستاذ مولاى التقى العلـــوى

9) **بقى بن مخلد مجتهد الاندلس المطلـــق** 58
الاستاذ عبد العزيز بن محمد بن الصديق

دراســـات اسلاميـــة

10) **التسامح الدينـــى** 60
الاستاذ الحســـن الســـايـــح

11) **موافقة القرآن لكل الحقائـــق** 66
الاستاذ محمد الفاسى

12) **من توجيه القرآن الكريم .... آثار المادية** 79

ركـــن التشريـــع

13) **ظهير شريف** بمثابة قانون رقم 1.75.102 بتاريخ 13 صفر 1395 (25 فبراير 1975) يتعلق بتنظيم الجامعات 88

14) **مجلـــة كليـــة الشريعـــة تجيـــب .** 96